الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٢٦٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٤٦ | الثلاثاء ١٤ من رمضان سنة ١٣٦٢ — ١٤ من سبتمبر سنة ١٩٤٣ | السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

دروس رمضانية :

الحياة الروحية

— ٢ —

تعتقد الأديان كلها أن وراء هذه المملكة الظاهرة في الحياة مملكة أخرى باطنة ، وهاتان المملكتان يختلف بعضهما عن بعض تمام الاختلاف ؛ فالمملكة الظاهرة فيها المادة بجميع أشكالها وتطورها ، من حبة الرمل إلى خلية المخ ، وفيها كل مظاهر الحياة مما نرى من جماد ونبات وحيوان ، وفيها كل شؤون الإنسان الظاهرة ، من زرع وتجارة وصناعة ، وتنظيم للحياة الاجتماعية ، واستغلال وجمع وإنفاق ، وتدبير ميزانيات ، وإنشاء دواوين وحكومات تشرف على الأعمال ، وملوك أو برلمانات تشرف على الحكومات ، وهكذا — وكل ما نقرأ من أحداث التاريخ إنما هو تاريخ هذه المملكة الظاهرة — أما المملكة الباطنة ففيها أنبياء وأولياء ، وقديسون وملائكة وشياطين ، ويوم آخر ، وبعث ونشور ، وحساب وثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وروح ووحي ، وإلهام وإله .

وهذه المملكة الباطنة سميت أسماء مختلفة ، فبعضهم يسميها « دائرة المجهول » ، و « ما لا يمكن علمه » ، وسماها القرآن « الغيب » ، كما سمى المملكة الظاهرة « الشهادة » ، فقال : « الذين يؤمنون بالغيب » ، « ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة » ، « تلك من أنباء الغيب » الخ . وترى الأديان أن هذين العالمين إذا قوما فالمملكة الظاهرة قليلة القيمة جداً إذا قيست بمملكة الباطن ، لأن الأولى ذاهبة فانية ، والأخرى باقية خالدة ، ولأن الأولى دخلها عنصر الزمان فأضعف قيمتها وأقصر مدتها ، وأما الأخرى فلم يدخلها عنصر الزمان فخلدت ،

وكما كان في مملكة الظاهر خدّاعون وكذّابون يكذبون في العلم والخُلُق والتجارة والصناعة ، كان كذلك خداع وتمويه في عالم الغيب ، كقصص العفاريت ، وأعمال السحرة ، والأساطير المتوارثة في كل أمة والتنجيم والطلاسم ، وهكذا .

وليس الإيمان بعالم الغيب — كما يظن بعضهم — ضرباً من الأوهام ورثناه من آبائنا الأولين أيام كانوا ضعاف العقول ، أقوياء الخيال ، بل هو جزء من طبيعة النفس الإنسانية ملازم لها في جميع أدوار عقليتها ومدنيتها وثقافتها ، والذين أنكروه بعقلهم ، ولم يستطيعوا التجرد منه في نفوسهم ومشاعرهم .

يشعر الناس أن هناك دائرة المعلوم تحيط بها أسوار ، وأن وراء هذه الأسوار دائرة المجهول أو عالم الغيب ، وأنهم يريدون أن ينفذوا من هذه الأسوار للوصول إليها ، فمنهم من يصل ومنهم من ينقطع .

ووسائل إدراك مملكة الظاهر غير وسائل إدراك مملكة الباطن ، فوسائل الأولى هي ما نسميه العلم ؛ وهذا العلم يعتمد فقط على الحواس الخمس ، وهي : السمع ، والبصر ، والشم ، واللمس ، والذوق ؛ فكل النتائج العلمية ، وكل الآلات والمخترعات ، وكل البحوث في الطبيعة والكيمياء ، والفلك ، والنبات والحيوان ، إنما عمادها هذه الحواس الخمس ، مرهفة أو مكبرة ؛ حتى أدق العمليات الرياضية والهندسية ، إنما هي أعمال الحواس الخمس مرهفة تستخدم فيها المقارنة ، ثم إعمال العقل في هذه المقارنات بالاستنتاج ؛ وكل النتائج العجيبة التي وصل إليها العلم ليست إلا وليدة الملاحظات الحسية مع الاستنتاج المنطقي ، وهذه هي خطة العلم دائماً .

أما وسائل عالم الغيب ، فليست الحواس ولا المنطق ، وإنما هي الرياضة النفسية ، واختطاط خطة غير الحواس الخمس ، ومحاولة تخطي هذه الأسوار بها ، والنفوذ من خلالها لإدراك عالم المجهول ؛ وهذا ما سلكه دائماً الروحانيون من الأنبياء والمتصوفين ونحوهم ، فمحمد ، وعيسى ، وموسى ، ونحوهم لم يسلكوا سبيل العلماء في بحثهم واعتمادهم على الحواس وتجاربهم ومقارنتهم بين المواد والاستنتاج منها ، إنما راضوا نفوسهم على نحو ما لينفذوا إلى عالم المجهول . وغار حراء والتعبد فيه لمحمد (ص) في جهده للوصول إلى المجهول من عالم الغيب ، كالعالم في معمله وتجاربه في عالم الشهادة ؛ هذا منهج وهذا منهج ، وشتان ما بينهما . بالمنهج العلمي من ملاحظة وتجربة واستنتاج ومنطق نكتشف قضايا العلم ، وبالمنهج الروحي الذي أشرنا إليه ، يحدث نوع من المعرفة أساسه ما نسميه بالوحي أو الإلهام .

وفي القرآن قصة ترمز إلى الفرق بين نوعي العلمين : العلم الآتي عن المنطق ، والعلم الآتي عن مكاشفة الروح ، وهي قصة موسى مع العبد الصالح الذي علمه الله من لدنه علماً ؛ فموسى سلك سبيل المنطق ، وبناء المسببات على الأسباب الظاهرة ؛ وهذا العبد الصالح لم يسلك هذا المسلك ، فخرق سفينة ليس لخرقها من سبب ظاهر ، وقتل نفساً زكية بغير نفس ، وأقام جداراً لأهل قرية أبوا أن يضيفوهما ، وكل هذا منتقد من جانب المنطق ، ولكن له ما يبرره من جانب الإلهام الروحي كما شُرح في القصة (١) .

لقد ذهب كثير من علماء النفس إلى أن وسائل العلم والمعرفة تنحصر في الوسائل المعروفة من ملاحظة وتجربة ، وعدّوا ما يظهر غير ذلك نوعاً من المرض النفسي ، أو شروداً في الخيال ؛ ولكن ظهور حالات كثيرة من المعرفة ، واكتشاف أمور ليس اكتشافها أساسه المنطق ، هدّأ أذهان كثير من علماء النفس ، فأقروا بأن هناك إدراكاً أساسه المنطق من ملاحظة وتجربة واستنتاج ، وهذا هو العادة والأغلب ؛ ولكن بجانب ذلك أحوال نادرة ، يستطيع فيها الإنسان أن يدرك ويعلم ، ويعرف

(١) اقرأ القصة في سورة الكهف : « وإذ قال موسى لفتاه » الآيات .

عن طريق غير المنطق ، وإن كانت نادرة ؛ وأقروا بأن طريقة علمنا ومعارفنا وبحثنا واستنتاجنا هي الطريقة المألوفة العادية ، ولكن ليست هي كل وسائل المعرفة ، فهناك من الوسائل ومن أنواع الإدراك ما لا يخضع للمنطق . ومن ذلك الحين أخذ علماء النفس يوسعون أبحاثهم ، ويوسعون بحثهم ؛ فبحثوا في التصوف ونشأته ، وكيفية إدراكه ومعرفته ، ولا يزالون في بدء هذا الاتجاه ، وهذا البدء كان بدءاً فقط من الناحية العلمية . أما الحقائق نفسها فمقررة في كل دين ، ومعترف بها في كل عصر .

على هذا الأساس تكون الإنسانية تسبح في دائرتين : دائرة خارجية أو ظاهرية ، ودائرة داخلية أو باطنية ، مثل الأولى كجسم الشجرة وجذعها وساقها ، ومثل الأخرى كالحياة تدب فيها فتكوّن وظائفها المختلفة ، وتوجهها للأزهار والإثمار ، أو كمثل جسم النملة وتوجيهها على الإطاعة .

وكل ما نمس به الآن من [illegible] وما نمس به من تاريخ أحداث وحروب واستعمار ، وما يحيط به من دعوة إلى الصدق والأمانة ، والجد والعدل ، كل ذلك متعلق بالحياة الخارجية ؛ أما الحياة الروحية فحياة داخل حياة ، وحكومة داخل حكومة ؛ وهذه غذاؤها الدين ، وهو غذاء فاسد إن فسد ، وصالح إن صلح .

ونرى في غضون التاريخ إشارات إلى هذه الحياة الروحية في معابد اليونان ، وهياكل المصريين ورموزهم ؛ فالخاصة كانوا يفهمونها على حقيقتها ويرمزون إلى المعاني التي في صدورهم برموز مجسمة وقصص ورمزية ، يفهمها الخاصة على أنها رمز ، ويفهمها العامة على أنها حقائق ، وهكذا الشأن في تاريخ سائر الأمم والديانات .

وقد حاول كشف المجهول من الحياة الخارجية والباطنية أربعة أصول ؛ كلٌّ سلك طريقه الذي يناسب طبيعته ومزاجه : العلم ، والفلسفة ، والدين ، والفن ؛ وكثيراً ما تسابقت في الطريق ، ووقعت بينها المشاحنات والخصومات ، ومنازعتها دليل على أنها لم تدرك وظائفها حق الإدراك ؛ وقد حاول كل أن يوسع طريقه على حساب غيره ، وأن يتعدى في اختصاصه على اختصاص غيره ، ولو نظرت كلها إلى طريقها من طيارة لأدركت أن الطريق المرسوم لكل منها طريق مستقل بنفسه ، واضح بأعلامه ، وأنها كلها تصب في دائرة وسطها ، هي دائرة الحقيقة . ولو سار كلٌّ في طريقه الخاص به ، ولم يتعدَّ على غيره لتوصل إلى الحقيقة من جانبه ، وهذه الحقيقة كفيلة بأن تنكشف في نهاية كل طريق عما يخصه ، وفيها كلها كشف الجانبين الظاهرة والباطنة ، والعالمين عالم الغيب والشهادة ؛ ولكن مع الأسف نرى علما يُغير على دين ، ودينا يُغير على علم ، وفلسفة تُغير عليهما جهلا بالطريق وعمى عن الحقيقة .

فالعلم — كما قلت — أساسه الملاحظة والتجربة ، ولا [illegible] إلا ما يلحظ ويجرّب ، فإن أراد أن يتخطى أسواره إلى عالم الغيب ، فقد أدواته ، وتكلم كلاماً سخيفاً ، وكذلك إذا أصابه الغرور فأنكر ما وراء السور .

والدين عماده الوحي والوصول عن طريق الروح إلى عالم الغيب بالرياضة وما إليها ، والاتصال بالشعور الأنبل إلى القوة العليا ، فإذا هو تخطى الدائرة الروحية إلى الدائرة العلمية ، فعرض القضايا العلمية يشرحها ويدلل عليها ، أو ينكر على العلماء بحثهم ونتائجهم ، فقد تعدى طوره ؛ وكذلك إذا أخذ يدلل على الدين بقضايا المنطق كما فعل علماء اللاهوت وعلماء الكلام في الإسلام ، فقد أتوا بفلسفة تافهة ليس فيها طعم الفلسفة ولا طعم الدين ؛ وكل هؤلاء وهؤلاء مثلهم مثل من أراد أن يشم بعينه ، ويرى بأذنه ، ويتذوق بأنفه .

والفن من أدب وموسيقى وتصوير أساسه الفهم

الباطن ، والشعور بالحق الذي وراء الظاهر ، والوصول إلى قلب الأشياء ، ومزجها بعواطف الفنان ومشاعره ومزاجه ، وإبرازها في شكل متناسق ، والاستمداد من قوة الخالق ليخلق صوراً وألواناً يلهم بها العواطف النبل والسمو ؛ فإذا هو لم يمس الباطن واكتفى بالسطح أو اقتصر على استخراج السخرية والحرق ، لم يؤد رسالته ، وعدّ من توافه الأشياء ؛ وإن هو اكتفى باستدرار المال من الأحياء والأغنياء ، أو كان وسيلة لإثارة المشاعر الجنسية ، كان سلعة تجارية وضيعة لا سمواً روحانياً رفيعاً .

والفلسفة أساسها التأمل والتفكير المنطقي ، وشرح ما نعلم تمييزه مما لا نعلم ، والوصول إلى جذور شجرة العلم والفن والدين لإدراك أصولها ؛ فإن هي كانت لعبا بالألفاظ ، وعرضا لآراء الفيلسوف ومشاعره ومعارضتها لآراء الفلاسفة الآخرين ومشاعرهم ، لم تؤد رسالتها ؛ وكانت فلسفة لفظية أو شكلية أو [illegible] التصنيفية ، أو سخافة مقنّعة بالألفاظ الغريبة الضخمة .

وما المدنية الحقة إلا هذه الأصول الأربعة [illegible] كل أصل جذوره وفرعه ، موازنة بينها حتى لا يطغى منها أصل على أصل ، مهذبة كل أصل حتى لا يدخله الاستبداد والغرور ، منقحة كل واحد منها حتى لا يدخله زيف أو تحوير أو تضليل .

ونفس كل إنسان فيها هذه العناصر الأربعة ، مع تفاوت بين الناس في القدرة والكفاية والفاعلية والقابلية ، والنفس الكلية للعالم كذلك فيها هذه العناصر واضحة جلية ، وهي بمجموعها وتفصيلها مظهر المدنية .

وفساد مدنيتنا التي نعيش فيها اليوم أتى من اختلال التوازن بين هذه العناصر ، وما دخل على كل عنصر من الفساد .

فالعلم تقدم وتقدم ، ولكن أين له القلب ؟ لقد ملأ الدنيا آلات وأدوات ، ونظريات في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ولكن أصيب بعيبين : أولهما أن دائرته العلمية هي المادة ، فأداه غروره أن يبحث فيما وراء المادة بأدوات المادة ، فلما لم يجده أنكره ؛ وثانيهما أن الروح لم تتقدم تقدمه وتخلفت وتخلفت ، فاستُخدم التقدم العلمي لخدمة الغرائز الوحشية في شكل متمدن ، فإذا كان الوحشي يقتل بالحجر أو الهراوة ، فالعلم يقتل بالكهرباء والغواصات والطائرات والغازات الخانقات ؛ والوحشي يأسر خصمه ويستعبده لخدمته ، والمدني يغزو ويفتح ويستغل ويستعبد بأسلوب منظم ، وفي الأمة الواحدة أنواع وأنواع من الاستعباد ؛ وكذلك الشأن في نواحي اللهو والسرور ، فقد رُقّيت في الرقص والموسيقى واللعب ، فالغرائز بين المتوحش والمتمدن واحدة ، والبواعث واحدة ، والعلم نظّم الشكل وهذب الأساليب فقط ، وقامت عظمة المدنية على ما كان يقوم به الوحشي من [illegible] حماية الأسرة أو القبيلة بشكل أوسع ، من تكوين جيش منظم ، وتقوية الروح العسكري ؛ ومع ذلك ؛ فالعلم بتقدمه من غير أن يتقدم الباعث الخلقي عن القديم إلا في الشكل ، فأصبحت المدنية على هذا الوضع وحشية مقنّعة أو همجية مقنعة .

والدين في المدنية الحديثة مظهر لا مخبر ، وعمل بلا قلب ، وشعائر بلا شعور ، وحركات بلا روح ؛ ورجاله أتباع السلطة الدنيوية ، لا قادة الحياة الروحية ، ينظرون بأعينهم إلى الأرض ، ولا ينظرون بقلوبهم إلى السماء .

والفن تحريك للشهوة ، واستجلاب للثروة ، وجهد في بقاء الشعوب في مستواها النازل .

فهل هذا الذي نرى من تخبط بلغ أقصى مداه ، وقلق واضطراب وصل إلى نهايته ، وزلزلة وبلبلة قلبت العالم رأسه على عقبه إعلان للثورة على المدنية التي لا روح لها ، ليُبنى على أنقاضها مدنية لها روح ؟ نرجو أن يكون !

أحمد أمين

كفاح المــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

إعلان الكبد دواء في مجمع العلماء

وصل الآن : طبيب شاب أمريكي اسمه « مينوت » ، من آل « مينوت » ، وهي أسرة في الطب عريقة ، ووراءه عدوٌّ هو فقر الدم الخبيث .

أولع « مينوت » بفحص الدماء ، وأولع بالأمراض التي تنشأ عن اختلالها في الدماء ، واختص منها فقر الدم الخبيث بدراسة له .

ووجد فيما وجد أن مرضى هذا الداء تنقص عندهم أعداد الدم بغير سبب ظاهر ، وتظهر بدمائهم تحت المجهر خلايا بها كريات حديثة غريبة ، هي كريات دم حمراء لكنها لا تزال حديثة في العمر ، أي أنها صنعها المصنع قبل أن يتم نضجها ، وهذا المصنع هو نخاع العظام .

ويزول هذا النقص في المرضى بغير سبب فيعود إلى الدم عدده من الكريات الوليدة .

فكر « مينوت » ما فكر ، وبحث ما بحث ، وأعجب ووجد من كثرة تساؤله مرضاه أنهم لا يأكلون كما يأكل الناس ، فيقتصرون في شهية ، ويأكلون في غير شهية ، وهم لا يأكلون في صحة .

عندئذ وقر في نفسه أن هذا الداء سببه شيء ينتج من نقص الطعام ، وإذاً فإن الطعام يكون دواءه .

وقد تركناه في آخر المقال وقد وقع على الكبد يطعمها لمرضاه شفاء من هذا الداء . وقد نحى بالكبد مريضاً ومريضة في غير كبير انتظار منه ، ثم عالج عليه عشرة من المرضى فشفاهم بأكل الكبد كل يوم ، بل أرغمهم بأكلها ، فصحّوا .

إنها لا تنكر أن تكون هذه مصادفة في المرة هذه ، ولكن كان هؤلاء مرضى عادية الحالة ، ومرضى الحالات الخاصة بفقر الدم الخبيث يموتون ، وهم قد يأكلونه وقد لا يأكلونه ، وخرافة الرأس الطبي غير خرافة مريض المستشفى . إذاً فماذا يصنع ؟

والآن اقرأ :

قال مينوت : « إن الرجل الذي أيقظ حيرتي أول تيقظ ، كان « مرفي » William Murphy .

كان « مرفي » طبيباً شاباً تخرج منذ سنوات خمس ، ولم يكن بحّاثة مفتشاً كما يفهم أهل اليوم معنى البحّاثة العلمي . ولم يكن من الأرستقراطية كما كان « مينوت » ، ولكنه شابهه في شغفه بدراسة أمراض الدماء . وولد في ولاية نيويورك ، وكان أبوه قساً ، ثم رحل إلى بُسطُن .

فذات يوم ذكر « مينوت » لمرفي ما وجد في هؤلاء العشرة المرضى ، كأنما يقترح عليه عفو الساعة أن يجرب هذا النظام الجديد من الطعام في مرضاه في مستشفى برجنهام ، وكان فقر الدم قد بلغ بهم حداً من السوء لا يرجى معه . ولم يكن من السهل على « مرفي » أول الأمر أن يجرب نظاماً كهذا في مستشفى كهذا .

بدأ « مرفي » يجرب الكبد ، ولكن الكبد الطيبة ... ليس من السهل إغراء صاحب المستشفى بشراء الأكباد ، وكانت جامعة متحذلقة لا تستسيغ الرجل السليم فضلاً عن رجل مريض كل ينقطع به الرجاء . إن المستشفيات في عمومها تأتي لمرضاها بطعام طيب غاية في الجودة ، ولكن عندها الكبد ... وشراؤها كل يوم ... إنها بدعة فارغة ، إنها ليست من أصول التغذية في قليل أو كثير .

ومع هذا فقد كانت في « مرفي » صفة أعجبت « مينوت » : كان « مرفي » أكولاً أكيلاً ، كان يأكل الكبد لا للجوع ، ولكن للتلذذ بأكلها . وإذن فهذا الرجل كان خير من يُنجح هذه البضاعة ويروّجها ، وإن هي فقدت شيئاً من حسنها قام حسن بيانه وحرارة إيمانه يغطيان كل سوأة فيها . قال « مرفي » : لم يكن بدٌّ من إغراء المرضى بأكلها كما يغري الدلال جمهوره بالشراء . فكان يجالسهم لأنه أحب الكبد حباً جماً ، ولأنه أطاع « مينوت » إطاعة الأعمى ، وأطاعه حضرات الذين

التقليدى ، وقد كان التقليد طاغياً كل الطغيان فى هذا المستشفى . ومضى فى سبيله هذا من مايو ربيع عام ١٩٢٥ إلى خريف ذلك العام ، ولم تكن سبيلا سهلة .

كان « مرفى » ذا مزاج تفاؤلى ، وكان هادئ الحركة بطئ الكلام ، ولكنه لم يكد يبدأ هذه التجربة ويبدو له ملامحها ، حتى أخذت نفسه تتحرك وتجيش بمقدار ما أذن طبيعة كطبيعته الهادئة الفاترة لنفسه أن تتحرك وتجيش . فإن قوماً أشرفوا بين يديه على الموت وجاء أوان دفنهم ومات ، فحشوا على الكبد ، وبدأوا يحسون الجوع ، وبدأوا يقفون على أرجلهم ويمشون ، وأخذوا يطلبون المزيد من الكبد لأنهم أنفسهم أحسوا بأنها الكبد لا غيرها سرّ هذا الشفاء .

وإن تعجب فعجب لميوت كيف أمن كل [illegible] من الناس . إن الطبيعة البشرية لا تكاد تطيق كل هذا السكون ، فكيف أطاقه ؟ إن [illegible] أكبر رؤوس الطب فى بسطن [illegible] فى ليلة من ليالى فبراير عام ١٩٢٦ اجتمع هؤلاء [illegible] على العشاء فى بيت « ميوت » . وبعد العشاء حدثهم « ميوت » عما هو قائم فيه من بحث علمى ، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة من الكبد ، وحدثهم عن اللمفو بلستوما Lympho-blastoma ، وعرض أمامهم على خريطة تشرح الحقيقة الغريبة النادرة : أن كرات الدم الحمراء فى فقر الدم الخبيث تعود أحجامها إلى أحجامها الأولى عندما تعود أعدادها إلى أعدادها الأولى — إلى خمسة ملايين فى المليمتر المكعب الواحد .

ولكن أحداً من هؤلاء الرجال العظام لم يخطر له فى بال أن يسأله : وكيف يبلغ عدد الكرات الحمراء فى دماء هؤلاء المرضى خمسة ملايين ؟

ومتى حصل هذا ؟ حصل وكثير من هؤلاء المرضى الهالكون ، نفضوا الأكفان عن أجسامهم ، وقاموا على أرجلهم يمشون ويعملون .

ثم أخذ خبر هذا يتسرب إلى الناس . وكان لميوت صديق حميم يدعى « جيمز هوارد مينز Tames Howard Means » كان يعمل فى المستشفى العام بماساشوستس . جاء « ميوت » ذات يوم يسأله : « هل سمعت بالتجربة البارعة التى يجريها بعضهم على مرضى الدم الخبيث بإطعامهم الكبد فى مستشفى بتر برجهام ؟ » .

سؤال وقع من قلب « ميوت » موقعاً سارّاً جميلا ، فيه عرف رأى الناس فى النتائج الأولى لتجاربه ، وهم لا يدرون من صاحبها ، وهذا أصدق طريق العرفان . كان « ميوت » يؤمن بالحقائق العارية ، وإن كانت مسيئة ، ويقدّس الحكم الحر فى الموضوع بغض النظر عن [illegible] وتلك التجربة التى أجراها « مرفى » وسمع بها الناس كانت تجربته ، والحكم فيها كان حكماً له . ثم إن [illegible] ولكنه لم يكن يدرى من مثله إجرائها [illegible] له من فطنه وملاحظاته البديعة

إن قليلا من الناس من يستطيع أن يجرى التجربة ، ثم يخرج منها بنتائج باهرة ، ثم هو يصبر حتى يجرى صديقاً بإعادة إجرائها ، ثم هو يصبر حتى توشك نتائج الصديق على نتائج أناها . هذا كله يحتاج فوق الصبر إلى شجاعة نادرة وإلى بصيرة نيّرة . وقد اختار « ميوت » لنفسه هذا الطريق ، فأصبح بعد الذى حدث عزيز الموقف ، قويّاً ، متجهزاً للحجاج ، متجهزاً للنضال ، حاضر الجواب لكل صديق كافر شكاك يأتى إليه فيقول : « ولكن قل يا جورج بالله عليك ، لماذا هذه الكبد دون غيرها من المآكل ؟ » .

إن من الأدواء أدواء يحدثها المرء بسبب نقص فى عنصر هام من عناصر الطعام . ومن أمثلة هذه الأدواء الكساح rickets والخفر Scurvy ، فهما ينشآن من

بعض الفيتامينات . ولكن ليس منها فقر الدم الخبيث ، ذلك لأن الناس في مجموعهم لا يأكلون في العادة الكبد بانتظام ، ومع هذا لا يعتريهم هذا الفقر في الدم ، فلا يمكن أن يقال إذن من بأنه هذا الفقر يكون بسبب نقص في مقدار ما يتعاطاه من الكبد . فكيف إذن يشفى أكل هذه الكبد وحده من هذا الداء ؟!

وجرى « ميوت » و « مرفى » في تجاربهما ، فرفعا ربع الرطل من الكبد دفعة واحدة إلى نصف رطل ، يأكله مرضاهما جميعاً كل يوم .

وقال له أصحابه ، أصحاب « ميوت » : « ولكن يا جورج ، لا يمكن أن تكون الكبد وحدها هي سبب هذا الشفاء . إن هذا المرض لا يمكن أن يكون من البساطة بحيث تشفيه الكبد على نحو ما تصف » . وحذروه أن ينشر عن تجاربه شيئاً ، ونصحوه بالتمهل والتروي .

وأخذا يزيدان في مقدار ما يعطيانه من الكبد [illegible] حتى لم يعد في الإمكان مزيد . [illegible] أصابوه من تحسن ، فحشر الكبد في جوفهم حشراً ، حتى انقلب هذا التحسن شفاء وهناء . ولم تسغ الكبد في كثير من هذه الحلوق ، ولكن « مرفى » قال لهم وما ضر هذا ما أفادوا منه القوة ، وما أحسوا به الحياة تعود متمشية في أجسامهم بعد ذهابها ؟ كان « مرفى » من بين الرجلين هو الذي اتهم لهذا ، وكان بذلك جديراً . وهذا العلم الذي اتسعا ما كان أحقه على الرغم من مظهره الأكدر ومسه الأخشن . لقد نجح في كل مريض بالفقر الخبيث ، إلا أولئك الذين بلغ بهم الداء حداً عجزوا عنده عن تناول أي طعام كائناً ما كان . وكانوا أربعة ماتوا هكذا ، فكان فقدهم على « ميوت » وصاحبه شديداً .

ثم جاءتهما امرأة مريضة تسعى . فلما قالوا لها الكبد قالت : وهل من الضروري أكلها نيئة ؟ وهل من ضرر في تقطيعها وهي نيئة ، ثم هرسها ، ثم خلطها بعصير البرتقال ، ثم تعاطيها بعد ذلك ؟ ورضي الطبيبان « الفرخت » ، ولم يباليا أنها لم تكن أستاذة في الطب .

ثم أخذ المرضى يفدون على المستشفى وهم في الرمق الأخير . جاءوا وقد خفت دماؤهم فصارت أنشر ما كانت ، وقلت كراتها الحمراء فكادت ألا تكون شيئاً . وجاءوا بهم على النقالات في عيّ وغشي . فجلس « مرفى » و « ميوت » إلى أسرّتهم وأخذوا يطعمونهم الكبد نيئة هريسة سائلة ، تنزل إلى أمعدتهم في أنابيب من المطاط . وأداموا إطعامهم على هذه الصورة اليومين والثلاثة والأربعة والخمسة الأيام ، فهو يُوهمهم أن هذا الرجل ضعفت أنفاسه حتى ما تكاد تبين ، أو أن هذه المرأة خفت وقلّت قلبها حتى ما تكاد تحس . وأخذا يعيشان الكبد هريسة سائلة ما استمحوا البرين طرفة [illegible] وأخذا يعيشانها حتى انفتحت تلك الجفون عن تلك العيون في رؤوس أفرط فيها الضعف فلم تستطع [illegible] . وأخذا يعيشانها فلد تلك الفرش حتى رأوا [illegible] أخذت تتفتح عيونهم وتتحرك شفاههم وتطلق أفواههم بما تخبر أنهم أحسن قليلاً . ومضى الأسبوع فجدهم جلوساً في أسرّتهم يطلبون الطعام من جوع . ومضى الأسبوعان فجدهم يطلبون القيام والسير على الأقدام .

* * *

وأخيراً يخرج اكتشاف « ميوت » من البيئة الصغيرة المتواضعة ، حيث يلفه ضباب من خمول لا يكاد يراه فيه غير القليل ، إلى البيئة الفخمة اللامعة حيث تسطع الأنوار وتغشى في ساحة الطب الشمس ضياء أبصار الناس على البعد والدنى . كان هذا في عام ١٩٢٦ . ففي « مدينة الأطلانطي » Atlantic City ، في نفس المكان الذي قام فيه « مكلوم » بين أساطين الطب وأستقرائه يشرح ما كشف « بنتنج » من دواء السكر وما استخرج من الأنسولين فأقام هؤلاء السادة المطعام وأقعدهم ، في نفس هذا المكان بين هؤلاء السادة الكرام قام « ميوت »

من مذكرات جحا :

فوق شجرة الجميز

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والمهداة إلى صاحب الوليمة الذى زعم أنها تحطيم للأديب الكبير جحا نفسه ...]

لا مناص لبنى آدم من أن يقيموا على الأرض ، ويسيروا على الأرض ، ويجلسوا على الأرض ، ويناموا على الأرض ، ويدفنوا أخيراً فى جوف الأرض . فمن الأرض خلقنا ، وعليها نعيش . هذا لا شك فيه . وقد اعتاد الناس ذلك وألفوه حتى صاروا لا يطيقون البعد عنها ، ويشعرون بالوحشة والرهبة إذا هم علوا عنها . ويل الأعجب تلك العظيم الذى يحمل الناس لا يقدرون عن فراقها ، فإذا هم حاولوا ذلك جذبتهم إليها جذباً عنيفاً ، ولم [illegible] من الإفلات منها . أرى الأطفال يثبون [illegible] منها ولو لمدة قصيرة ، فإذا بهم يقعون عليها [illegible] كأنهم بلاعبونها ، ويسرهم أن يفلتوا [illegible] منها ، ويسرهم فوق ذلك أنها لا تفلت من أحد منهم ، بل تمسك بهم وترجعهم إلى حضنها فى غير مبالاة . والطير نفسه إذا علا فوقها فإنه لا يفارقها إلا إذا جاهد بجناحيه ، فإذا أعيا أو أصابه عجز فى جناحه أو انخلع عنه ريشه هوى إليها كما يهوى الحجر الثقيل . سر الله الأعظم الذى أبدع كل شىء ، فأتقن صنعه !

وطالما تمنيت لو استطعت بحيلة من الحيل أن أتخلص من قبضة الأرض ، وأنطلق إلى السموات العلا ، فلم أقدر على أن أفلت قيد شبر واحد منها . وعرفت مقدار عجزى وضعفى ، وأقررت لله بالحكمة والملكوت .

ولكنى وإن عجزت عن أن أنطلق من إسار الأرض يحلو لى أن أحتال فى السمو ولو قليلا فوقها ، ولهذا حبب إلىّ أن أتخذ لى مقعداً فوق شجرة قديمة من الجميز ، لا أذكر متى رأيتها أول مرة ، وأكبر ظنى أنها كانت هناك فى مكانها منذ وُلدت أنا أو قبل ذلك . وهى شجرة شمطاء قد تشابكت فروعها ، وتداخلت أغصانها ، وصار جذعها الجامد مثل وجه الكهل الذى تظهر عليه آثار فعل الزمن [illegible] فكم بها من نتوء ومن كهوف ومن الوشى [illegible] عليها أجيال من الأطفال كنت أنا واحداً منهم . [illegible] وإن كانت لا تحمل زهراً وهى جميلة فى [illegible] تبدو كالحلة الخضرة كأن ماء [illegible] . وأحد ملء فى كهنها لا يزال [illegible] كما كان فى أول يوم وقعت أنظارها .

يحلو لى أن أصعد فوق هذه الشجرة ، واتخذت لى عليها عشاً أو مرقداً لا أحس فيه أنى فوق شجرة ، بل أنام عليه بل ، حتى مطمئناً إذا غلبنى النوم على هدهدة النسيم الوديع .

يشرح ما كشف من فقر الدم الخبيث ، ويصف كيف تيسّر له هو وزميله « مينو » أن يبلغا بمرضاه إلى حيث الصحة والشفاء . وأراد « مينوت » أن يمشون مقالته فسمّاها « فقر الدم الخبيث يعالج بالكبد » ، ولكن نصحاءه غلب عليهم الحذر الذى يغلب على أهل العلم المتدربين فأقروه أن يقص من عنوانه قليلا ، وينقص من إبهامه ، فصيّره « فقر الدم الخبيث يعالج بطعام خاص » .

وخرج من خطابه فى هذا الجمع القليل الذين قرءوا ، حركة وجرت فيه ضجة لم تخل وقاره . وتعجبوا فتساءلوا : « كيف ؟! أشفيت واحداً من هؤلاء المرضى ؟! »

وانفض المجتمع ، فانتزع « مينوت » إلى فندقه فصعد سلمه إلى حجرة نومه حيث انتظرته زوجته . قال « مينوت » : « واندفعت إلى أوراقى أنظر أرقامها وأطالع خرائطها أستوثق من صدق ما قلت لرجال هذا الجمع ، فهالنى أنى لم أقل لهم شيئاً إلا صواباً حقاً وصدقاً » .

أحمد زكى

هناك استطعت أن أسير قليلاً فوق الأرض ، وأن أشرف على الناس من عَلٍ ، وأن أتأملهم وأنظر إلى حركاتهم وإلى سكناتهم دون أن يفطنوا إلى أنى أرقبهم أو يداروا عنى حقيقتهم . فالناس لا يكشفون حقيقتهم إلا إذا اطمأنوا كل الاطمئنان إلى أن العين لا تراهم . كم من الناس من يملأون القلوب مهابة والعيون روعة ، فإذا سهوا مرة فأزاحوا الستار عن أنفسهم ، أو اختلس أحد نظرة إليهم من وراء الغطاء المحكم الذى يلفون به جوهرهم ، لاحت منهم روائح العفن ، وأطلت منهم البشاعة والشناعة والحقارة . ولست أحب أن أتدسس فى حقائق الأفراد ، ولا أستحل أن أتجسس على أحد منهم بعينه ، بل أقصد أن أطلع على الإنسان الذى فى هؤلاء الأفراد . لقد انجلى لى من أسرار الحياة ، واستطعت اليوم أن أعرف من عيوب نفسى ما يجعلنى لا أقسو على عيوب غيرى ، ولا أنسى إلا أنى واحد من أفراد هذه البشرية المسكينة التى لا ذنب لها فى ضعف فطرتها [illegible] من مقعدى فوق شجرة الجن الشمطاء ، سوى ما أطل به على من نفسى ، وعن هذا الخلق الذى خلق من طينتى .

كنت أحس فى أول الأمر أنى مثل القردة التى تعيش فوق الأشجار فى بلاد الهند — وداخلنى من ذلك شىء من التقزز والكراهة ، فليس هناك من يحب أن يشبه القردة . ولكنى فكرت وتأملت فى حقائق الأمور ، وروضت نفسى على أن تخضع لحكم العقل والبصر ، فلم أبث أن حملتها على الاطمئنان إلى شبه القرود .

وزاد بى التأمل ، ولج بى التصور ، فإذا بى أتحقق أن القردة أقرب أنواع الحيوان شبهاً ببنى آدم ، وكأن الله تعالى قد جعلها على صورة الإنسان حتى يغض من كبريائه ، ويقلل من غلوائه ؛ وقد حكى بعض أهل الأسفار أنهم رأوا قردة كبيرة الجسم تبلغ مثل حجم الإنسان أو تزيد عليه ، وقيل إن بعضها لا يحمل ذيلاً فى طرف جسمه ، فإذا استوى واقفاً لم يكن بينه وبين الإنسان إلا فرق ضئيل . ومهما يكن من الأمر ، فإن الإنسان يشبه القرد أكثر مما يشبهه سائر الحيوان ، فهو بلا شك أقرب إلى صورته من صورة الأسد أو الغزال أو الكلب ، والإنسان فوق ذلك يحمل فى طباعه ملامح كثيرة من طباع القردة . وكثيراً ما وقفت أتأمل القرد وهو يلعب أمام مدربه ، وينظر بأدب إلى العصا التى فى يده ، فعجبت من القرابة التى بينه وبيننا معشر بنى آدم . ثم نظرت إلى ذلك الحيوان الرشيق وهو يخشى صاحبه من خوف العصا ، وكيف يحاول أن يختلس الجوزة ويخبئها فى فمه ، ثم يلقيها إلى صاحبه إذا أدركه أنه رآه وهو يلتقطها . ثم كيف يسرق كل ما تصل إليه يده من الطعام ويدخره فى جراب شدقيه إذا لم يكن جائعاً . تأملت كل هذا ، فصح عندى أنه ليس من الحق أن يبرأ الإنسان من شبه القردة أو يستكبر على أن يكون مثلها فى تسلق الشجر مهما يكن من الأمر . فإنى هنالك فوق شجرة [illegible] نزهة نفسية فلما وجدت مثلها ؛ فهناك كنت [illegible] الناس كأنما حجبت بينى وبينهم أميالاً وأميالاً ، ثم [illegible] أتأمل فوق الأرض إلا بمقدار ما يزيد على قامتى . ووجدت نفسى أستطيع أن أنظر حولى فلا أجد أحداً ، بل أرى الجميع تحتى يسيرون ، ويسيرون مطأطئى الرؤوس لا ينظر واحد منهم إلى أعلى ؛ وهذه من عجائب الطبع الإنسانى ! حتى لقد خيل إلى أن الناس فى بحث دائم عن أشياء يلتقطونها من تحت أقدامهم . وهذا الطبع العجيب يجعل إقامتى فوق الشجرة الشمطاء لوناً من ألوان السحر . فهناك أتمتع بما يتمتع به صاحب القلنسوة السحرية التى تسميها شهرزاد فى ألف ليلة وليلة (طاقية الإخفاء) ، فبينما أرى الناس جميعاً ، وأطلع على حركاتهم وسكناتهم لا تقع عين أحد على . وفى هذا ما فيه من بعث على الفرح والسرور . وقد استطعت من مقعدى هناك أن أعرف أسراراً جديدة فى الطبع البشرى ، لم أكن لأعرفها لولا شجرة الجن .

أرى الرجال يسمون سمتاً شاذاً ، ويسعون فى الحقول

يقطع القلوب ، ويحملون الأحمال الثقيلة التي ينوءون … فأعجب وأسائل نفسي : ما الذي يسخط هؤلاء إلى هذه الشقة ؟ فما أطلت التأمل رأيت أن هنالك سوطاً يلهب ظهورهم ويدفعهم دائماً إلى الأمام — سوطاً … عليهم المعدة أحياناً ، ويجرده عليهم النساء أحياناً … . وقد لاحظت أن السوط الذي يجرده عليهم النساء … وأقسى ، فإذا ألهب سوط النساء ظهور الرجال اندفعوا إلى الأمام في عنت ، ولم يترددوا أمام شيء ، حتى الجريمة مهما بلغت من الشناعة . وأما النساء أنفسهن ، فقد لاحظت أنهن لا يجرين من الرهبة ، بل هن أشبه شيء بمروض … الأسد إذا غضب من وقع سوط الروضة التفت … غاضباً وزمجر ، ولكنه لا يلبث أن يتبع … ويفعل ما يؤمر به . ومن أعجب ما لاحظته في النساء … لا يقصدن ما يقلنه أبداً . ومن ذلك أن إحداهن … « نعم » وهي تقصد « لا » ، … قائلة بهما « نعم » .

… هذه كلها ملاحظات وقفت … شجرة ، والناس يمرون أو يجلسون في الظل من تحتي ، … غير عالمين أن هنالك عيناً ترقبهم .

وقد خرجت من كل ما تأملت فيه على حقيقة واحدة ، هي أن الإنسان كله جدير بالرثاء . الإنسانية ضعيفة مسكينة ، وإنه لمن القسوة والظلم أن يحكم إنسان على إنسان بأنه مخطئ أو آثم .

والنفوس الكبيرة لا يجب أن تكون فظة غليظة … تعرف من ضعف الإنسان ما يملأ قلبها سماحة . ولم أر من الناس أشد قسوة في حكمه على الناس من أولئك الذين امتلأت نفوسهم بالعيب والنقص . من أجل كل هذا الذي اهتديت إليه في تأملي ، وأنا فوق شجرة الجميز ، أحس دائماً بأن خير ما أفعله هو أن أواسي الناس إذا سقطت . فالسارق جدير بعطف من أجل جريمته ؛ والذي يرتكب الكبائر أحق بالرثاء والعطف ممن امتلأ قلبه سلاماً ؛ والجاهل لا يستحق الازدراء ، بل هو جدير بأن يبذل العالم إلى أتقه حتى لا يجهله .

لقد أصبحت لا أرى في الحياة شيئاً يستحق أن يحكره الإنسان العاقل أو يغضب له . ليس هنالك إلا ما يثير الرثاء والعطف والمواساة ؛ حتى العداوة نفسها لا تثير في نفسي إلا مواساة لعدوي المسكين ، الذي يعذب نفسه بشعورها المر .

سألني بالأمس سائل : ماذا كنت فاعلاً لو ذهبت إلى بلاد يعبد الناس فيها العجل من دون الله ؟ ففكرت قليلاً ثم قلت : « لا أفعل شيئاً . أحس وأرثي له » .

ولكني ما كنت أنطق بهذه الكلمة حتى علت الصيحات من حولي من كل جانب ، وظن الناس أنني … حكيم ، وذهبوا يدسون … في أطراف … ؛ ولما سمع أبو النور … فقد غضب علي ومقتني … كفراً . ومعاذ الله ما كفرت … ما يلقنه من … تأملي فوق شجرة الجميز .

ولا هفت الأصوات حولي وهب النسيم من خلال الأوراق الصفراء ، أو كلما لمع من فوق … ضوء الشمس أو سجا الليل ، أو طلع في السماء القمر والنجم ، كلما حلا التأمل ، وتجلى السلام ، تذكرت علية ابنة علاء الدين سلطان نوبة ، وتمنيت لو كانت هنالك إلى جانبي أنظر بعمق في عينيها لأستوحي منهما الحقيقة الباهرة ، وأستنشق من قبل أنفاسها عطور الفردوس ، وأملأ قلبي بالسعادة والسلام من ترنيم ألفاظها . ولكني .... يا علية ابنة السلطان ! ماذا لعلك تظنين بي إذا أنت رأيتني فوق شجرة الجميز مشرفاً على الناس من بين أغصانها ؟ أتكونين مثل صورتك كمال الحكمة ، وكمال النبل ، وكمال السمو ، أم تكونين كسائر هذا الناس فتحمي عينيك وتسخرين ؟ أواه لو كنت يا علية مثل سائر هذا الناس !

(مثل الأصل) مجا

حياة أفلوطين

بقلم تلميذه فورفوريوس

١ — يبدو أن أفلوطين[1] معاصرنا الفيلسوف كان يخجل من كونه ذا جسم ، ولقد تغلغل هذا الشعور في ثنايا نفسه وعمق أشد العمق ، حتى أنه لم يتيسر لأحد قط سبيل إلى التحدث عن أسلافه أو والديه أو مسقط رأسه .

وكان يبدي أيضاً نفوراً شديداً من الجلوس إلى رسام أو مثال ، ولما ألح عليه أميليوس في أن يسمح برسم صورة له وسأله قائلا : « أليس يكفي أن نحمل هذه الصورة التي أوردتنا فيها الطبيعة ؟ وهل نظن حقاً أنه لزام علينا أن أوافق على صنع صورة لهذه الصورة لتكون شيئاً مرموقاً فيه تنظر إليه الأجيال من بعدنا ؟ » .

فلما رأى أميليوس إصراره [illegible] أحضر صديقه كارتيريوس أمهر [illegible] أحضره إلى « المؤتمرات » التي كانت مفتوحة في مدرسة أفلوطين لكل طارق ، وعمل على أن يتمكن الفنان بطول المشاهدة وكثرة الملاحظة من التقاط ملامح الفيلسوف البارزة . فلما تجمعت آخر هذه الملاحظات في ذهنه تيسر له اعتمادا على ذاكرته أن يخرج صورة أولى عرضها على أميليوس ، فأدخل له هذا بعض التعديلات لتكون الشبه بالفيلسوف أقرب . وبهذا الأسلوب وبدون علم أفلوطين جادت لنا عبقرية كارتيريوس بصورة دقيقة شبيهة بالفيلسوف أتم الشبه .

٢ — وكان أفلوطين يشكو في أغلب الأيام مرضاً أصاب أمعاءه ، ومع ذلك فقد كان يرفض استعمال الحقن التي تغسل بها الأمعاء ، قائلا : إن هذا النوع من العلاج لا يليق بشيخ كبير في سنه . ومن ثم كان يأبى تعاطي العقاقير الطبية التي تحوي مواد مستخلصة من الوحوش الضارية الزواحف ، وبخاصة لأنه — كما قال — لم يكن يستسيغ تناول لحوم الحيوانات التي تتعهدها الناس بالتربية ليتغذوا بها .

وامتنع من الذهاب إلى الحمام فكان يدلك بيديه كل يوم في المنزل ، ولما أهلك الوباء من كان يقوم له بالتدليك امتنع امتناعاً تاماً عن هذا العلاج أيضاً . ثم أصابه بعد ذلك بقليل مرض الخناق الخبيث .

على أن أعراض هذا المرض لم تكن قد ظهرت عليه إذ كنت أعيش معه وملازماً له ؛ وإنما ساءت حاله واشتدت الآلام عليه بعد ما أبحرت إلى صقلية . فلما عدت إلى روما حدثني يوستوكيس أحد خلفائه ، وكان قد لازمه في ساعات [illegible] ، فقال : إن صوته بح في آخر أيامه وفقد [illegible] الرخيم الذي كنا نتعهده فيه ، وإن بصره ضعف ، [illegible] بديه وقدميه .

[illegible] أثناء مرضه حريصاً على [illegible] عن مخاطبتهم والتحدث إليهم ، وعند [illegible] روما وذهب إلى كامبانيا ، وأوى إلى ضيعة هناك كان يملكها زيتوس أحد أصدقائه القدماء ، وكان قد توفي منذ مدة ما . ومن هذه الضيعة توفرت له أكثر حاجاته وما بقي منها بعد ذلك كان يجلب إليه من مينتورنيس حيث تقع أملاك كاستريكيس .

أما عن اللحظات الأخيرة التي قضاها أفلوطين في هذه الحياة ، فإن رواية يوستوكيس تتلخص فيما يأتي :

كان يوستوكيس مقيماً في بتيولي وحضر متأخراً ؛ فلما وصل إليه ، حياه أفلوطين بقوله : « لطالما انتظرتك — إني أجاهد في تسليم الإلهي في إلى الإلهي في الكل » . وعندما قال ذلك زحف ثعبان من تحت فراشه واختفى في جحر في الحائط . وفي هذه اللحظة مات أفلوطين .

كان هذا في نهاية العام الثاني من حكم كلوديوس . وكان أفلوطين عندئذ ، كما أخبرني يوستوكيس ، في

---

(١) ولد أفلوطين في مدينة ليقوبوليس (أسيوط) كما يقول يونابيوس ، سنة ٢٠٤ أو ٢٠٥ بعد الميلاد ، وتوفي في روما سنة ٢٧٠ . وليس معروفاً بالضبط جنسه ووالده ، ولكن يحتمل أن يكون مصرياً .

سنة والستين من عمره . أما أدق فكانت فى هذا الحين

ليليانوم . وكان أميليوس فى آبيا فى سوريا ،

سترتيكس فى روما ، لم يكن بجانبه إذن عند وفاته

ى يوستوكيس .

وعلى هذا فإذا عدنا إلى الوراء ستا وستين عاما ابتداء

العام الثانى لحكم كلوديوس ، أمكننا أن نحدد مولد

طين بأنه كان فى العام الثالث عشر من حكم سفيروس .

أنه لم يبح لنا قط بالشهر أو اليوم الذى ولد فيه ، وذلك

ه لم يكن يرغب فى إقامة حفل فى يوم مولده ، أو تقديم

له ؛ مع أنه كان يقدم الضحايا والقرابين فى يوم مولد كل

أفلاطون وسقراط ، ثم يقيم بعد ذلك حفلا يخطب فيه

ل من يستطيع ذلك من أفراد حلقته .

— رغم ما كان يبديه أفلوطين على وجه العموم من

فور نحو التحدث عن أبيه وتاريخ حياته ، فإن هناك

ما من الدقائق والتفصيلات القليلة التى ذكرها لنا فى

يات حديثه معنا .

وهكذا أخبرنا أنه وهو فى الثامنة من عمره ، وقد أخذ

الذهاب إلى المدرسة ، كان ما يزال يلتقم مرضعته ويحب

أن يكشف عن ثديها ويرضع منهما ، ولم يمتنع عن ذلك إلا

بعد أن قيل له فى أحد الأيام : إنك شيطان شاذ أو

عفريت ضال .

ولما بلغ سن العشرين شغف بحب الفلسفة ، فأرشد إلى

أعظم الأساتذة شهرة فى مدينة الإسكندرية ، ولكنه كان

يذهب إليهم ويعود محزونا خائبا . ولما باح بمكنون نفسه

إلى أحد أصدقائه أدرك حقيقة حزنه ، وأشار عليه بالتوجه

إلى أمونيوس ؛ ولم يكن قد جربه بعد ، فذهب إليه أفلوطين

وأصغى إلى إحدى محاضراته ، ثم صاح بصاحبه : « هذا

هو الرجل الذى كنت أنشده » .

ابتداء من هذا اليوم تبع أفلوطين أمونيوس على

الدوام ، وتقدم بإرشاده تقدما كبيرا فى الفلسفة ،

حتى تملكته الرغبة الملحة فى تعرف أساليب الفرس

ومذهب الهنود . وحدث أن الإمبراطور جورديان كان

يتهيأ فى ذلك الحين لحملة عسكرية على بلاد الفرس ، فلحق

أفلوطين بجيشه وذهب مع الحملة وهو فى التاسعة والثلاثين

من عمره ، لأنه كان قد قضى أحد عشر عاما متتلمذا

لأمونيوس . ولما قتل جورديان فى أرض العراق لم يستطع

أفلوطين الوصول إلى أنطاكيا سالما إلا بشق النفس .

وفى الأربعين من عمره — أى فى حكم فيليب —

استقر به المقام فى مدينة روما .

ولقد كان أرنيس وأوريجين وأفلوطين قد تعاهدوا فيما

بينهم على ألا يبوحوا بشىء من التعاليم التى كشف لهم عنها

أمونيوس . فظل أفلوطين وفيا بعهده هذا ، ولم يذكر لأتباعه

شيئا قط من فلسفة أمونيوس . ولكن هذا العهد نقض .

نقضه أولا أرنيس ثم تبعه فى ذلك أوريجين : على أنه من

الحق أن نقرر هنا أن أوريجين لم يكتب إلا رسالتين فقط

الأولى عن « الكائنات الروحية » ، والثانية عن « الملك

الأوحد هو الشاعر » وقد حررها فى حكم جالينوس . أما

أفلوطين فقد ظل أمدا طويلا لا يكتب شيئا ، ولكنه أخذ

يعتمد فى محاضراته على المراجعات التى تلقاها على يدى أستاذه

أمونيوس . وعلى هذا النمط قضى عشر سنوات لا يكتب

شيئا ، بل يتحدث على الدوام إلى طائفة مختارة من

أتباعه ويناقشهم .

وكان يشجع سامعيه على إلقاء الأسئلة ، فأدت به هذه

الحرية ، كما قال أميليوس ، إلى الشىء الكثير من الخروج عن

الموضوع ، وإلى الكلام الذى لا طائل تحته ولا غناء فيه .

وانضم أميليوس إلى حلقته فى العام الثالث من حكم

فيليب ، وهو العام الثالث أيضا على بدء إقامة أفلوطين فى

روما ، وظل ملازما له إلى العام الأول من حكم كلوديوس ،

أى أنه قضى أربعا وعشرين سنة فى هذه الحال . ولما اتصل

بأفلوطين كان قد سبق له التمرن مرانا حسنا على يدى

ليزيماخوس وفاق زملاءه جميعا بكده ومثابرته وطول عنائه .

ولأضرب لك مثلا على هذا أنه نسخ مؤلفات نيومينس

أبو الهول الذي لا سر له

لأسكار وايلد (١٨٥٦ — ١٩٠٠)

كنت جالساً بعد ظهر يوم خارج قهوة دى لابيه ، أرقب الحياة الباريسية ومتناقضاتها ، من مناظر ذل وفقر ، إلى مظاهر عز وغنى ، وإذا بي أسمع من يناديني ، فلويت طرفي ، فرأيت اللورد مرشيسون الذي لم أره منذ تركنا الكلية . وكان من أسباب سروري أن جمعتني الصدفة به ، وتصافحنا بحرارة ، فقد كنا صديقين حميمين في أكسفورد ، وكنت أحبه حباً جماً لظرف نفسه وكرم محتده ، وكنا نعرفه صريحاً لا يوارى ولا يدارى ؛ وقد بدا لي أنه فتى حائر ، ولم أشأ أن أعزو هذا إلى مذهب الإلحاد الحديث ، فعهدى به أنه من أشد المحافظين . ثم انتهيت إلى أن في الأمر امرأة . وسألته عما إذا كان قد تزوج بعد ، فأجاب : « وأنا لا أفهم النساء فهماً كافياً » . فقلت : « عزيزى جيرالد ، إن النساء خلقن ليحببن لا ليفهمن » فأجاب : « ليتني في إمكاني أن أحب حيث لا أثق » . فصحت : « لا بد أن هناك سراً في حياتك . خبرني عنه » . فأجاب : « وهيا نذهب للنزهة ، إن المكان هنا جد مزدحم . لا ، لا أريد عربة صفراء . أي لون آخر . تلك العربة الخضراء القائمة في الطريق » . فقلت له : « إلى أين نحن ذاهبان ؟ » فقال : « كيف تشاء . إلى المطعم الذي في الغابة ؛ سنتناول طعام الغداء هناك ، وستحدثني عن كل ما يتصل بك » فقلت : « أنا أريد منك أن تحدثني عن نفسك أولاً . خبرني عن سرك » . فأخرج من جيبه صورة امرأة طويلة هيفاء ، ذات طلعة بهية غريبة ، وعينين واسعتين مبهمتين ، وشعر مسترسل .

قال : « ماذا رأيت في هذا الوجه ، أتراه ينم على الإخلاص ؟ »

وفحصته جيداً ، فبدا لي أنه وجه شخص يخفي سراً ، لا أستطيع الحكم عليه إن خيراً أو شراً . وسألته أن يحدثني عنها ، فوعد أن يفعل بعد الغداء . ولما أحضر الخادم القهوة والسجائر ذكرته بوعده ، فقام من مجلسه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم ارتمى على مقعد وقص علي القصة الآتية :

« ذات مساء كنت أمشي في شارع بوند ، وكانت العربات محتشدة احتشاداً شديداً ، حتى قد كادت حركة المرور تتوقف ، وكانت تقف قريباً من الطوار عربة صفراء

كلها ، ومن ترتيبها ، وكان على وشك أن يتم حفظها ورمتها عن ظهر قلب ، كما أنه من مدوني ملاحظات وتذكرات على مؤتمرات أفلوطين ، ثم حررها بعد ذلك في نحو من مائة رسالة أهداها إلى هوستيلياس وكان قد تبناه .

٤ ـ أما أنا فقد حضرت من بلاد الإغريق في العام العاشر من حكم جالينوس في صحبة أنطونيوس الرودسي ، فوجدت أميليوس قد سلخ ثمانية عشر عاماً ملازماً لأفلوطين ، ولكن لم يكن قد أقدم بعد على تحرير أي شيء ، اللهم إلا المذكرات التي لم تكن قد بلغت حينئذ المائة عداً . وكان عمر أفلوطين في هذا العام العاشر من حكم جالينوس حوالى تسعة وخمسين عاماً ، وكنت أنا في الثلاثين عندما قابلته أول مرة .

وفي هذا الحين كان أفلوطين قد أخذ يكتب في الموضوعات التي تناولها البحث في المؤتمرات . وعندما لقيته في هذا العام العاشر من الحكم ، كان قد ألف إحدى وعشرين رسالة . ولم تكن هذه الرسائل مما يسهل تداوله قطعاً ، ومع ذلك فقد أتيح لي الحصول عليها . والواقع أن توزيع الرسائل لم يكن يحدث إلا سراً وفي تكتم ، وإلا بعد أن يختبر من يحصل عليها اختباراً عسيراً .

ولم يضع أفلوطين عناوين لهذه الرسائل ، فكان كل امرئ يضع لكل رسالة ما شاء من عنوان . وما أذكره فيما يلي إنما هي العناوين التي ساد استعمالها في النهاية . (يتبع)

الإسكندرية — إبراهيم عبد المجيد زكي

صغيرة، تلفت نظري لسبب ما. ولما مررت بها أطل منها ذلك الوجه الذي أريتك إياه بعد ظهر اليوم، فسلبني لبي في الحال، وأصبحت صورته تلح علي في اليقظة والنوم. وبعد قرابة أسبوع دعيت للعشاء عند مدام دي راسنيل. وبينا نحن جلوس إذ فتح الخادم الباب؟ وأعلن حضور الليدي الروي. إنها المرأة التي فتنني خلقها. وكان من فائق سروري أن أدعى لصحبتها أثناء العشاء. وبعد أن جلسنا قلت بصوت : « يخيل إلي أني قد رأيت الليدي منذ وقت معين في شارع بوند ». فشحب لونها، وقالت في صوت خافت : « ربك لا تتكلم بمثل هذا الصوت الرفيع ». وشعرت بخيبة لهذه البداءة السيئة. وكانت ليدي الروي تتحدث في صوت موسيقي منخفض، كأنها تخشى أن يكون هناك من يتسمع. وشعرت بحب حارق نحوها، وقد أثار جو الغموض المبهم الذي يحوطها فضولي. ولما همت بالذهاب سألتها عما إذا كان في الإمكان أن أزورها. فترددت لحظة، ثم [illegible] « نعم، غدا في الساعة الرابعة والدقيقة [illegible] ». وقد توسلت إلى مدام دي راسنيل أن تحدثني [illegible] كل ما أمكنني أن أعرفه عنها أنها أرملة وأنها تملك منزلاً جميلاً في بارك لين.

وفي اليوم التالي ذهبت في الميعاد المضروب، ولكن الخادم أخبرني أن الليدي خرجت في التو واللحظة. وذهبت إلى النادي وأنا مشغول الفكر قلق النفس؛ وبعد أن فكرت في المسألة طويلاً كتبت إليها أسألها أن تتيح لي الفرصة في يوم آخر. فجاءني منها رد قصير تقول فيه: إنها ستكون في المنزل يوم الأحد الساعة الرابعة.

وفي يوم الأحد استقبلتني. ولما حان موعد ذهابي رجتني أن أرسل خطاباتي على العنوان الآتي إن أردت الكتابة إليها: « مسز نوكس. طرف مكتبة ويتيكر. شارع جرين »، ثم عقبت قائلة: « هناك من الأسباب ما يدعوني إلى هذا ».

ورغم أني كنت ألقاها كثيراً، فإن جو الغموض لم يزايلها قط. وكنت في بعض الأحيان أظن أنها في قبضة رجل آخر. وكان من أصعب الأمور علي أن أصل إلى تفسير معقول، أو نتيجة مرضية. وأخيراً قررت أن أسألها أن تقبلني لها زوجاً، وكتبت إليها على عنوان المكتبة أسألها ميعاداً. وقد أجابت طلبي، وكنت في السماء السابعة من السرور. كنت مفتوناً بها مشغوفاً، رغم غموضها وإبهامها. وفي يوم الاثنين تناولت الغداء مع عمي وهو يقطن في ريجنت بارك كما تعلم. وقد أردت أن أصل إلى بيكاديلي، واختصرت الطريق بالسير في شوارع قذرة ضيقة. وفجأة رأيت أمامي ليدي الروي، وهي متحجبة بحجاب كثيف وتجد في السير. ولما وصلت إلى آخر منزل في الشارع صعدت الدرج وفتحت الباب بمفتاح كان معها ودخلت. قلت لنفسي: « هذا هو السر؟ » وأسرعت نحو المنزل وأخذت أتفحصه. ويظهر أنه كان من [illegible] التي تؤجر حجرات للناس. وعلى عتبة الباب سقط منديلها، فالتقطته من الأرض ووضعته في [illegible] فيما يجب أن أفعله، وانتهى بي [illegible] أن أتجسس عليها. وذهبت [illegible] الساعة السادسة ذهبت إليها، [illegible] مضطجعة على أريكة، وكانت تبدو رائعة الحسن، وحيتني قائلة: « إني مسرورة لرؤيتك. لم أغادر المنزل طيلة النهار ». فتفرست فيها في دهشة، وأخرجت المنديل من جيبي وقلت لها بهدوء: « لقد سقط هذا المنديل من الليدي بعد ظهر اليوم في شارع كمنر »! فنظرت إلي في فزع، وبادرتها أنا قائلاً: « ماذا كنت تفعلين هناك؟ » فأجابت: « وأي حق تسألني؟ » فقلت: « حق رجل يحبك. لقد أتيت أسألك أن تقبليني زوجاً ». فغطت وجهها في يديها، وانهمرت الدموع من عينيها غزاراً. قلت لها: « لابد من أن تخبريني ». فنظرت إلي وقالت: « لورد مرشيسون! ليس هناك شيء أخبرك به ». فصحت بها: « لقد ذهبت لتقابلي شخصاً ما. هذا هو سرك. ألا تخبريني بالحقيقة؟ ».

كنت مجنوناً بالنساء، ولا أدري ما قلته لها، ولكني أعرف أني رميتها بأقذع الألفاظ وأخشنها، وخرجت من

من اليوميات

يوميات مسلولة

فتاة بلا قلب

«لست صاحبة تصوير أو نحت أو موسيقى؛ ولست امرأة ولا فتاة ولا صديقة، بل يتحول كل شيء لدي إلى موضوع للملاحظة والتأمل والتحليل: فكل نظرة أو صورة أو صوت، وكل سرور أو ألم سرعان ما أزنه وأحققه وأمتحنه وأصنفه وأسجله؛ فإذا ما فرغت أو كتبت رضيت» (١/٥/٨٤).

تلك كانت طبيعة ماري باشكرتسف، وفي هذا سر شقائها.

رمى قلبها الطفل العاري ذو الجناح سهامه الوردية سهماً من بعد سهم؛ ولكن منجرفها [illegible] النصال على درعها الفولاذي، فلا يكاد فؤادها يشتعل بنار الحب حتى يأتي العقل ببروده القاسي فيخمد أوار ذلك الحب؛ وبينا قلبها يهتاج ويثور، إذا عقلها يبتسم ويتهكم قائلاً: أمالك أيها القلب الساذج! حتى قال عنها رفيقها في المرسم: «إنها لم تحب، بل ولم يكن في وسعها أن تحب»؛ وفي رأي مدام لومبروزو أنها فتاة مترجلة لا تعرف من الحب شيئاً، واستشهدت على هذا بقولها: «لا أحسبني شعرت بعاطفة غريبة عن الطموح!».

ونحن هنا في الواقع بإزاء ظاهرة نفسية عامة تشاهدها لدى العباقرة الذين يتصفون بالتحليل الذاتي في قسوة ورزانة. فإن ما يحسون به من وجدانات لا يستطيعون الشعور به كاملاً خالصاً، فهم بين حدة العاطفة وسعة الشعور والتهاب الإحساس وقوة الشهوة، وإذا بالهم هذا كله وهماً مشوهاً قد [illegible] من النقد، ويرى فيه الخلاف. أجل، قد يكونون أقوى من غيرهم إحساساً، وأشد منهم درجة في الشعور، [illegible] شأنه أن يجعل شعورهم به أكبر

عندها تأثراً مؤقتاً. وفي اليوم التالي كتبت إلى [illegible] أنها خطابها دون أن أفتحه. ورحلت إلى النرويج مع آلان كولفيل، ورجعت بعد شهر، وكان الخبر الأول الذي طالعته في «المورننج بوست» هو وفاة الليدي ألروي. وانصرفت عن الدنيا وأهلها. كنت أحبها حباً جماً، كنت أحبها حب جنون. رباه! كيف أحببت تلك المرأة!

وذهبت يوماً إلى شارع كذا؛ كان الشك يعذبني، ولما طرقت الباب برزت سيدة يبدو عليها الوقار، فسألتها عما إذا كان عندها حجرات تؤجرها لي، فقالت: «لم أر السيدة منذ ثلاثة شهور. وبما أن الإيجار مستحق عليها، أعتقد أن في الإمكان أن تحل محلها». فعرضت عليها صورة الليدي ألروي وقلت: «أهذه هي؟» فأجابت: «هذه هي بلا تأكيد. متى ستعود يا سيدي؟» فقلت: «لقد ماتت». فقالت السيدة: «رباه! لقد كانت أحسن نازلي عندي. كانت تدفع ثلاثة جنيهات في الأسبوع [illegible] لمجرد أن تجلس في إحدى حجرات الجلوس من وقت لآخر». فسألتها: «هل كانت تقابل أحداً هنا؟» فأكدت لي أنها كانت تأتي وحدها، وأنها لم تكن تقابل أي إنسان. وأعطيتها جنيهاً وذهبت. ما معنى كل هذا؟ أترى المرأة صادقة فيما قالته؟

— نعم.

— وكيف تفسر ذهابها إلى هناك إذاً؟

— يا عزيزي جيرالد، لقد كانت عندها نزعة جنونية إلى التخفي، فاستأجرت تلك الحجرات لمجرد أن تذهب هناك محجبة وتتخيل نفسها بطلة. أما هي نفسها فلم تكن إلا أبا هول بدون سر.

— هل تعتقد هذا؟ — إني متأكد.

وأخرج اللورد الصورة من جيبه، وأمعن النظر فيها ثم قال: «عجباً!».

ترجمة وتلخيص

محمود عمرو

وقوة فيهم أبعد . ولكنهم ليسوا في هذا على حال واحدة ، بل نستطيع أن نميز فيهم فريقين : فريقاً يوغل في التحليل الباطني كما يتعمق شعوره ويحياه حتى أبعد أغواره ؛ وفريقاً أشبه ما يكون بالمرآة تعكس الشعور على العقل كي يستحيل من موضوع للإحساس الخالص إلى موضوع للإدراك المجرد . وتبعاً لهذا كله تختلف طبيعة الأداء لدى كل فريق : فأداء الأول فيه عنف وفيه حرارة ، فيه عمق وفيه غالباً مرارة ، لأنهم يلقون من الكأس حتى الرواسب ؛ وأداء الثاني هادئ بارد ، لا يخلو أحياناً من السطحية الممزوجة بالدقة والرشاقة . ومارية إلى هذا الفريق تنتسب . غير أن أداءها قد اتخذ لوناً خاصاً يتميز به عن أداء من يشاركها من أبناء هذا الفريق ، لأن عاطفة خاصة بلغت من القوة قمتها ما لم تبلغه عند غيرها قد أثرت فيها من هذه الناحية كل التأثير ؛ وتلك هي عاطفة الطموح التي قد تبلغ أحياناً حد الكبرياء والزهو . فلئن كان في نحو كتابة « اليوميات » نوع من الثقة بالنفس [illegible] حسب طبائع أصحابها ، إلا أنهم يتحرون [illegible] التواضع بل والظهور بمظهر العجز والضعف [illegible] أنهم هنا يقفون عراة أمام أنفسهم ، فلا مجال إذن للبس القناع الذي لا يدعو الإنسان إلى اتخاذه إلا الاجتماع . أما مارية فأبعد ما يكون عن هذا التواضع ، لأنها مخلصة في التعبير عن نفسها كل الإخلاص من ناحية ، ولأنها ملتهبة بالطموح إلى الدرجة القصوى من ناحية أخرى ، حتى كادت هذه العاطفة أن تكون الدافع الوحيد لها في كل فعل أو قول ؛ وسيكون إذن من الصعب المتعب أن تخفيها ، بل وألا تتحدث عنها بتطويل الحديث في شهوة ونشوة . وعاطفة الطموح والزهو هذه تهب الأداء نبرة قد تثير أحياناً نوعاً من الاشمئزاز المريض ؛ وهي فعلاً تثير الشيء الكثير من هذا في بعض صفحات يوميات مارية ؛ ولكن لا يكاد المرء يبدأ الاشمئزاز حتى يذكر طبيعة مارية كلها وكيانها الروحي ، فتختفي السمات مفسحة الطريق أمام الإعجاب العميق ، وتستحيل البسمة الساخرة إلى بسمة عاطرة .

وعاطفة الحب عند مارية قد أوقدها أو أخمدها هذا الطموح العقلي ، ومضت في تطورها عوامل خاصة لا نستطيع أن نحدد على وجه التدقيق نصيبها الحقيقي في تحديد مجرى هذا التطور على النحو الذي كان عليه . ولكن العامل الأكبر في هذا التطور كله هو من غير شك تجربة غرامها الأول في روما مع بيترو انتونلي ، هذا الرحالة الإفريقي القناص ، الذي عرفته مارية أول ما عرفته في روما سنة ١٨٧٤ ، حين رأته يشق طريقه ظافراً وسط جموع الشباب الولهان ، الذي كان يقذف مارية بأكاليل الزهر العاشق ، بينما هي تطل في مكبرة من شرفتها ، حاملاً تلك الباقة التي ألقتها ابنة خالتها عليه ، ولكنها سقطت بعيدة [illegible] إياها من الشباب الحاشد المتحول ، ولكنه [illegible] عليهم واستخلصها منهم [illegible] ، وأقبل بإزاء مارية كالظافر ، فكان جزاؤه منها نظرة خجول هي [illegible]

[illegible] تجربة غرام شتت أوارها [illegible] الجنوب الحار [illegible] الريف الضاحي حول روما بألوانه الزاهية ، فامتزجت فيها نصاعة الشمال بحرارة الجنوب ، وانعقدت عليها روعة الجمال الرطب وثورة الشهوة المتأججة ، فكانت خليقة إذن بأن تكون تجربة من الطراز الأول في عمق الإحساس وشدة العاطفة وسمو الشعور . ولكنها انتهت على العكس من ذلك لأسباب صادرة عن طبيعة كلا الطرفين : فمن ناحيتها هي ، كان عقلها البارد لا يستطيع أن يتابع قلبها الولهان ، فكانت تسخر من كل ما تعانيه من أحاسيس ، حتى كان شعورها أقرب إلى العبث منه إلى الصدق ؛ إذ كان عقلها ينكر قلبها ، فلا نكاد نشعر بأن عاطفة الحب قد بدأت تغزوها ، حتى يثور عقلها ، فتصيح متوسلة إلى القارئ ، بألا يزعم أن هذا « حب » ، وإنما هو « إعجاب » . وتراجع نفسها في السنة التالية ، ولكن بعد ذهاب التجربة ، فتعلق في مذكرات الإعجاب قائلة : « أرجو ، مرة واحدة وإلى الأبد ،

ألا تعقل أيها القارئ ، أهمية خاصة إلى إجمالي ؛ فإني لم أكن أفكر بما كنت أكتبه من « أشوبل ... ؛ لقد كنت أزين فيه ، حتى أصنع منه قصة » (مايو سنة ١٨٧٧ ، حاشية) .

أما من ناحيته هو فيبدو أنه كان فتى كُلْبا ، صاحب نزوات ، لم يخلص لهذا الغرام حين بدأ يوضع موضع الامتحان . ذلك أنهما قد بدآ يتبادلان حديث الحب ، هو في حرارة واشتعال ، وهي في شيء من السخرية وعدم الثقة . واتصل بينهما الأمر حتى بلغ حد الاتفاق الضمني على الزواج ، ولكن كان يحول دون تحققه من ناحية الأسرتين اختلاف في المذهب الديني ، فهي أرثوذكسية ، وهو كاثوليكي ؛ فلم ترض أسرتها بأن تتزوج ابنتها رجلا كاثوليكيا ولم ترض أسرته هو كذلك . ومع هذا استمر الحب شيئا ، حتى غادرت مارية روما إلى نيس حيث اعتادت أسرتها الإقامة إبان الشتاء ، وأشارت عليه بالحاق بها هناك . ولكنها انتظرته عبثا ، فقد كان هو منشغلا في [illegible] الديون التي اقترضها . ثم عادت إلى روما ، [illegible] مواعدها ، حنقا على هذا الحب [illegible] أول الأمر ، حارا بعد أن عرفت ما كان قد حل به ، وإذا بالحب يستعيد ناره الأولى ؛ وها هي ذي الأيام تتسابع بسرعة ولم يبق لدى مارية إلا يوم واحد للإقامة بروما ؛ فكان ميعاد ، وكان لقاء في منتصف الليل عند الدرجة السفلى من درجات السلم الصغير الذي يحتل الممر الداخلي ؛ وكان حديث عذب فيه من جانبه إعلان لغرامه المشبوب ، ومن جانبها ترقب لمستقبل غرامهما ، ولم يكن يقطعه عليهما إلا صوت خالتها وهي تناديها كي تنام دون أن تعرف أين مكان ابنة أختها الآن ، وعلى أي حال هي . واستمر الحديث ثلاث ساعات توج في نهايتها بقبلة كانت الأولى ... والأخيرة . إذ حيل بين الشاب وبين الفتاة من ناحية أسرته التي لم تشأ أن يتم هذا الطائف الغرامي ؛ وبذا انتهت هذه التجربة الغرامية الأولى في حياة مارية . أما هو فلسنا ندري عنه بعد أو قبل من هذه الناحية شيئا ، ولعله كان لا يزال يذكر بعد هذه التجربة ، يذكرها لا في مرارة وأسف ، بل في شيء من الابتسام الرقيق ، كما تذكر نزوة عابرة من نزوات الشباب ، نزوة قد تكون جميلة حقا ، ولكنها لن تترك بعد في النفس أثرا .

أما بالنسبة إليها ، فما أمرّها من تجربة وأقساها !

والغريب من أمر الذين كتبوا عن مارية أنهم لم يحفلوا كثيرا بهذه التجربة ، ولم يستطيعوا في شيء أن يحددوا مدى ما كان لها من أثر في تطورها الروحي ، خصوصا فيما يتصل بنظرتها إلى الإنسان عامة ، وإلى عاطفة الحب خاصة . أما نحن فنستطيع أن نقول مؤكدين مطمئنين إن لهذه التجربة أخطر الأثر في تطورها الروحي ؛ لأن هذه التجربة كانت أولى تجاربها الغرامية ، بل وأولى تجارب اختبارها الناس في إخلاصهم وعواطفهم . وإن من أخطر التجارب أثرا في حياة الإنسان تجربة مثله في غرامه الأول ، ومسلك الطرف الثاني في هذه المسألة بالنسبة إلى الطرف الأول [illegible] حالة ، لا يكاد شيء أن يكفر عنها . [illegible] هذا التحليل العميق الرائع لهذه الظاهرة في [illegible] « [illegible] » لألفرد دي موسيه ، وما لها من أثر عميق في مجرى الحياة الباطنة لمن كان فريسة لها . فظاهر هذا الأثر عديدة ، أهمها عدم الإيمان بالحب بمعناه الحقيقي ، أعني الحب الخالص لمحبوب واحد أو المخلص إطلاقا ؛ ثم فقدان الثقة في الناس من حيث عواطفهم وإخلاصهم في الشعور بهذه العواطف ؛ وما يلبث هذا الشعور أن يمتد إلى كل آفاق الحياة الإنسانية ، فيستحيل إلى سخرية من كل شيء ، وعدم اكتراث لأي مظهر من مظاهر الود الإنساني المزعوم ؛ وإلى شك في قيمة كل ما عسى أن يبدو في إنسان ما من عواطف نبيلة ، وإلى عدم إقبال المرء على أي شيء يقتضي الثقة بالناس أو الإخلاد إليهم بل بمادتهم والاعتماد على شرف نواياهم ؛ فلا يعود يسير بين الناس إلا محدّث الشفتين ، منخفض الرأس ، مزّم التكشير ؛ وقد يمضي أيضا إلى يأس من كل ما في الحياة .

ويبدو أن مارية قد تأثرت بهذه التجربة الغرامية الفاشلة على هذا النحو. فقد بدأت بالندم على ما فعلته مع هذا العاشق المزعوم: «انطويت على نفسي، وكأن نوراً باهراً قد أضاء في نفسي. فقد فهمت أخيراً أنني كنت آثمة حين سمحت بقبلة، وإن تكن واحدة، إلا أنها قبلة على كل حال! وحين أعطيته ميعاداً عند أسفل السلم! وفهمت أنني لو لم أذهب إلى الممر الداخلي ولا إلى غيره، ولو كنت لم أستسلم للاعترافة، إذن لكان الرحيل قد زاد من تقديره إياي، ولما كنت شعرت بالحنين، أو ذرفت الدموع». «ولكن ماذا يجدي هذا كله؟» لم يبق لدي ما أفعله غير شيء واحد هو: التسليم. أجل! إني لأعلم أن هذا شاق، ولكن أين إذن سيكون الفضل؟... إنني أعتقد، أنا المخدوعة، بأن سورة الإيمان الملتهب والدعوات الحارة تستطيع شيئاً!... إلهي، [illegible] هبني الطمأنينة! هبني شيئاً أستطيع التعلق به! أنا متعبة، متعبة أشد التعب. كلا [illegible] المواصفة، بل من خيبة الأمل» [illegible] حتى تتحطم فرحاً: «يا للشقاء، [illegible] وسمعت بعد أن أثبت ذهني صوت رجل كهذا. وإذا كنت أشكو شيئاً أو أندب أمراً، فذلك هو خطئي الثاني، وذلك هو خيانة النعمة التي لم تكد تبدأ بعد، والتي لم يكن نصيبي منها غير الفشل وخيبة الأمل» (١٣/٤/٧٦).

ومن هنا انتزع منها الإيمان الحب، ولم تعد تؤمن بشيء منه إلا باعتباره الحب الكلي المطلق الذي يتجه إلى الطبيعة كلها لكي تنفي بهذا الحب الإنساني. فليس في هذا الحب الكوني توسع وتعمق في الحب الإنساني، وإنما هو عندها، وعند غيرها كذلك، نفي للحب الإنساني ودواء للشفاء منه بعد أن استيأس منه المرء. فصارت تسخر منه، بل وتسخر من نفسها إذا كانت قد توهمت يوماً أنها أحبت حقاً: «أو تظن أنني أحببت يوماً ما؟ أنا لا أعتقد. فهذه النزوات الطائشة العابرة تبدو مظهر الحب ولكنها ليست كذلك في الواقع» (٥/١١/٨٣).

ولكن، هل هي صادقة حقاً في هذا الذي تقول؟ وهل لو كانت قد نجحت في حبها الأول فتزوجت، أكانت تكون كغيرها من النسوة المتزوجات، أعني هل كانت تفقد طموحها وتقتل مواهبها الفنية، كما قد يحدث أحياناً كنتيجة للزواج؟

أسئلة ملحة في حلها حل للغز مارية كله! وفي الجواب عنها مجال واسع لكي يظهر الفرويديون براعتهم وتهاويلهم! ولست أدري لماذا أفلتت من أيديهم حتى الآن من هذه الناحية، فلم يعنوا بها، وإنما الذي عني بها لومبروزو في كتابه «العبقرية والجنون»، ولم ينسب إلى هذه التجربة أثراً في حياتها، كما لم يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة، اللهم إلا السؤال الأول الذي أجاب عنه بأن قال: إنها كانت مريضة [illegible] إلى ذلك من قبل. ثم [illegible] ما يكفي [illegible] تزداد ما كفى أن أمر عليها [illegible] في أسطر قليلة، فقال في كتابه [illegible] منحلة ماتت بالسل، وكانت [illegible] الأخلاق، مع لوثة من جنون العظمة وجنون الاضطهاد، فضلاً عما فيها من طيش شهواني حسي مرضي».

ونحن، وإن كنا لسنا ممن يميلون إلى الفرويدية، إلا أننا نحس أن هذه التجربة الفاشلة قد أثرت في حياة مارية الروحية تأثيراً كبيراً. ومع ذلك فنحن نتابعها في إجابتها هي نفسها عن السؤال الثاني؛ فقد وضعت هي هذا السؤال من قبل فقالت: «سيقولون إنني إذا كنت قد تزوجت في السابعة عشرة، إذن لكنت كغيري من النسوة. وهذا خطأ فادح. فلو كان في الوسع تزويجي كغيري من الناس، لكان من اللازم أن أكون واحدة أخرى» (٨/١١/٨٣). وهذا لا ينفي في شيء أن يكون فشل حبها الأول قد أثر في نظرتها إلى الحب، ونظرتها إلى الناس، بل ونظرتها إلى مجرى حياتها كلها، على النحو الذي بيناه من قبل. وإنما الذي نعنيه حقاً، فهو

لماذا أنت عائش ؟

قرأت في العدد ٣٣٧ من « الثقافة » الصديق مقال الأستاذ الفاضل أحمد أمين بك « في الهواء الطلق » ، فلفت نظري منه ما جاء في سياق المحاورة التي افتتحها تساؤله « لماذا أنت عائش ؟ » .

ولقد بهرني في الحق هذا السؤال كل بهره ، غير أني لم أقع على جواب شاف له كما كنت أنتظر ؛ بل على العكس فقد انتهى الحوار وهو يدور حول الموضوع دون أن يلمسه من قرب أو من بعيد . . . .

فالسؤال واضح وصريح ، ليس فيه غموض ولا إبهام : لماذا أنت عائش ، لأي سبب أنت عائش ؟

فالقول بأنك عائش لمليكك ، أو لوطنك ، أو للمجتمع ، لا يصلح جواباً له ، إذ أن السائل [illegible] معرفة لمَ أنت عائش ، أو كيف أنت تعيش ، وإنما هو يسأل عن الغاية أو القصد من وجودك في الحياة .

والآن فلنعالج الموضوع من طريق آخر ، لعله يلقي ضوءاً يهدينا إلى الطريق القويم لمعرفة الغاية الحقة .

نحن نعلم أن الإنسان لا ينى يستغل الأرض ، فهو يزرعها ويستخرج معادنها ، ويغرس الأشجار ويبني الدور والقصور ، وهذا كله ليس بالطبع سوى مقدمات ، فلماذا هو يفعل ذلك ؟ إنه بالطبع قصد يرمي إليه .

فهو يزرع الأرض ليقتني محصولاتها ، ويغرس الأشجار ليأكل ثمارها ، ويستعمل أخشابها في حاجياته ولوازمه ، ويستخرج المعادن ليستعين بها في أعماله ، ويبني الدور والقصور ليأوي إليها ويحتمي بها .

وإذاً فمن المقدمات الأولى قد وضحت الغاية من هذه الأعمال كلها ، وإذاً فهو لا يعمل كل ذلك لمجرد التسلية واللهو ؛ فإذا عرفنا ذلك فلنعد من جديد إلى السؤال الأول . . .

لماذا أنت عائش ؟

يخرج المرء إلى الحياة فيتعهده ذووه بألوان من التربية إلى أن يشب فيتزوج ويتناسل ، ثم هو بدوره يتعهد أولاده بألوان من التربية إلى أن يشبوا ثم يتزوجوا ويتناسلوا .. الخ

ويقضي الإنسان المدة المقدرة له في الحياة ، ثم ينتهي أجله فيموت ، وينحل جسمه إلى عناصره الأولى ليعود فيتكون من جديد بشكل أو بأشكال أخرى . . . الخ

وهكذا نرى الموضوع يتكرر ، والقصة تعيد نفسها ، [illegible] ، فما هي الغاية من كل ذلك [illegible] في نفس العدد من « الثقافة » مقال [illegible] الأستاذ الكبير صاحب مذكرات جحا جاء فيه :

« لست أدري أين هي الحقيقة ؟ أقول الحقيقة ؛ ما هي تلك الحقيقة ؟ هل للحياة قصد ترمي إليه ؟

لله درك . . . نعم إن الحقيقة التي تستنفد العمر في البحث عنها ، ولم يهتد إليها أحد من قبل ، ومن يدري ؟ فلعل أن يهتدي إليها أحد من بعد ؟

ما يمكن أن يذهب إليه أحد الفرويديين فيقول : إن سر صفريتها في هذا الفشل ، ولو كانت تزوجت لكانت شيئاً آخر . وآية ذلك أن انهيارها العقلي لم يكن شيئاً طارئاً كوسيلة من وسائل تسامي غريزتها الجنسية الفاشلة ، وإنما ظهر قبل هذه التجربة بعدة سنوات ، كما يظهر من « يومياتها » هذه التي بدأتها في الثانية عشرة ؛ وما دامت هذه اليوميات السابقة على هذه التجربة صحيحة ، وما دمنا لا نجد انتقالاً مفاجئاً أو شبه مفاجئ بين حالها العقلية قبل هذه التجربة وبعدها ، فلا دليل يقوم إذن على أنه كان لهذه التجربة مثل هذا التأثير . وإنما التأثير الحقيق الذي صدر عنها ، فهو في تقوية تطورها الروحي اللون خاص ، هو التهكم والسخرية من كل شيء ، وعدم الاحتفال بالعواطف الإنسانية النبيلة المزعومة ، وعلى رأسها عاطفة الحب ، حتى كان تطورها مؤيداً ، ظاهرياً على الأقل ، لما نعتوها به من أنها فتاة بلا قلب .

« يتلى »

عبد الرحمن بدوي

فلسفة «وليم جيمس»

ملخصة بقلم «هنري برجسن»

— ٢ —

ذهب النـاس في كل زمان إلى القول بأن هنالك حقائق هي من اختصاص العاطفة كما أن منها ما هي من اختصاص العقل . وفي كل زمان أيضاً قالوا إنه إلى جانب الحقائق التي نجدها حاضرة ، هنالك حقائق أخرى تعاون على صنعها ، وتعتمد بعض الاعتماد على إرادتنا . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن تلك الفكرة تأخذ عند «جيمس» قوة جديدة ومعنى جديداً ، وأنها ، بفضل نظرة ذلك الفيلسوف إلى الواقع ، تزدهر حتى تصبح نظرية عامة عن الحقيقة .

ما هو الحكم الحق ؟ جرى الناس على أن يطلقوا اسم «الحق» على القول الذي يطابق الواقع . ولكن أي شيء يمكن أن يكون مشابهاً للأصل ؟ إنه يميل إلى أن نرى فيه شيئاً من قبيل مشابهة الصورة للأصل . وعلى ذلك يكون القول الحق هو الذي يكون بمثابة صورة من «الواقع» ؛ ولكننا لو تأملنا الأمر لرأينا أن ذلك التعريف بحق لا يصدق إلا في حالات استثنائية نادرة . فما هو «الواقع» ؟ إنما هو هذه الواقعة أو تلك من الوقائع المعينة التي تتم في زمان أو مكان ما ، وهي أمر فردي ، وهي شيء متغير . أما أقوالنا وأحكامنا فأغلبها عامة ، وهي تتضمن أن لموضوعها بعض الثبات . ولنأخذ حقيقة هي أقرب ما تكون إلى التجربة مثل : «الحرارة تمدد الأجسام» ؛ لأي شيء يمكن أن تكون هذه صورة ؟ يجوز على نحو ما ، أن نأخذ صورة من تمدد جسم معين في لحظات معينة ، إذا صورنا بالفوتوغرافيا ذلك التمدد في مختلف أطواره . وأكثر من هذا . أنني أستطيع بعد أن أقول ، على سبيل المجاز ، إن القضية : «هذا القضيب من الحديد يتمدد» هي نسخة مما يحدث من مشاهدة تمدد قضيب الحديد . ولكن حقيقة تصدق على جميع الأجسام ، دون أن تختص بواحد منها قد نراها ... لا نسخة لها .

أين هي الحقيقة ؟

ثم يستطرد الأستاذ الكبير فيقول في موضع آخر عن تيمور لنك :

« فهو يسوق قومه كالجراد ، لا يبالي ما يسفك من دمائهم ، ويهبط بهم على الناس ، فإذا هبوا للدفاع كانت معركة يسميها تيمور معركة المجد ! أما أنا فلا أرى إلا طاغية يسوق حمقى يضطربون أمامه ، ويسطو بهم على الناس لكي يقتل بعضهم بعضاً ، حتى إذا بقي هو بعد ذلك تربع فوق الأرض راضياً ، وظن أنه قد نال السعادة وأصاب قصد حياته ... ! »

ثم ماذا ؟ سيلحق بهم بعد فترة وجيزة — وجيزة جداً لا تزيد على سنوات معدودة ؛ أليس هذا مضحكاً مضحكاً ؟ ! سيمضي الناس جميعاً واحداً بعد واحد حتى لا يبقى منهم أحد في النهاية ... »

ثم ماذا ؟ !

هكذا نرى أيضاً هارون الرشيد ، ونابليون بونابرت ، والسلطان عبد الحميد ، وغليوم ، وغيرهم وغيرهم ، من رجال التاريخ قد سعوا وجدوا ، ثم خاضوا المعارك وامتلكوا البلاد ، وحازوا السطوة ، وعانوا المتاعب والأحزان ، واستمتعوا بالسعادة والملذات ، وسكنوا القصور ، ثم غيبتهم القبور ...

وهكذا نرى الموضوع يدور ويدور ، والقصة تعيد نفسها ، أو التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ...

وماذا بعد ذلك ؟ وما هي الغاية من كل ذلك ؟

نعود فنقول :

لماذا أنت هاهنا ؟ وما هو القصد من الحياة ؟ !

الإسكندرية ا . ع . سوداقة

درجت الفلسفة في كل زمان على أن تقدم لنا بهذا الصدد ما رضينا. رأى قدماء الفلاسفة أن ثمة فوق الزمان والمكان عالماً هو المثوى الأزلي لجميع الحقائق الممكنة. ورأوا أن صدق القضايا الإنسانية يكون بمقدار محاكاتها تلك الحقائق الأزلية محاكاة أمينة. وأنزل المحدثون الحقيقة من السماء إلى الأرض، ولكنهم ما فتئوا يرون فيها شيئاً موجوداً قبل أقوالنا وقضايانا. فالحقيقة عندهم مودعة في الأشياء وفي الواقعات، وعملنا يقتضي بحثاً عنها هنالك، فنخرجها من مخبئها، ونعرضها على الناس في وضح النهار. وقضية مثل: «الحرارة تمدد الأجسام» هي قانون يحكم الوقائع، ويختفي بينها، إنْ لم نخلص منها تخلص الإبرة والقش؛ قانون متضمن حقاً في تجربتنا، وعلمنا مقصور على استخراجه منها. إلى أن فلسفة كفلسفة «كنت» التي تريد أن تكون كل حقيقة علمية نسبية، أي بالنسبة إلى الذهن الإنساني، ترى أن القضايا الصادقة معطاة من قبل في التجربة الإنسانية.

ومتى تم تنظيم تلك التجربة بواسطة الفكر الإنساني على العموم، كان كل عمل العلم عبارة عن أن يخترق الغلاف اللين، غلاف الواقع، فيجد الحقيقة جاثمة في داخله؛ كالنواة في باطن الثمرة.

إن تصور الحقيقة على هذا النحو طبيعي بالنسبة لأذهاننا، وطبيعي أيضاً في الفلسفة: لأن من الطبيعي أن نتمثل الواقع كلاً مرتبطاً متسقاً اتساقاً كاملاً يسنده سند التعقل، وهذا السند يكون هو الحقيقة عينها. وعلمنا لا يصنع شيئاً إلا أن يهتدي إلى ذلك السند. ولكن التجربة وحدها لا تقول لنا شيئاً يشبه هذا. و«جيمس» يتمسك بالتجربة. التجربة تعرض علينا ظواهر متغيرة؛ فإذا كان قول ما من الأقوال المتصلة بإحدى هذه الظواهر يعيننا على أن نسيطر على الظواهر التي ستليها، أو على أن نتنبأ بها فقط، قلنا حينئذ إن ذلك القول حق. فقضية مثل: «الحرارة تمدد الأجسام» — وهي قضية هدتنا إليها رؤيتنا تمدد جسم ما، تجعلنا نتنبأ بما يحدث لأجسام أخرى عند حضور الحرارة، فهي تعيننا على أن ننتقل من تجربة ماضية إلى تجارب جديدة؛ إنها «خيط هاد» لا أكثر ولا أقل. فالحقيقة سبيل، ونحن نسير معها؛ ونحن نحكم بالصدق على كل قول يستطيع أن يهدينا في سيرنا خلال الواقع المتحرك، فيمكن لنا منه، ويضعنا في أحسن الظروف وأنسبها للعمل.

إننا نرى مبلغ الفرق بين هذه النظرة إلى «الحقيقة»، وبين النظرة التقليدية. جرت العادة أن نعرف «الحق» باتفاقه مع ما هو موجود من قبل. ولكن «جيمس» يعرفه باتفاقه مع ما لم يوجد بعدُ. فالحق في نظر «وليم جيمس» ليس صورة لشيء قد كان أو لشيء هو كائن، بل يشير إلى ما سيكون؛ أو إن شئت فقل إنه يعمل على إيجاد ما سيكون. فالفلسفة تميل بفطرتها إلى تحويل الحقيقة بالنظر إلى الوراء. أما «جيمس» فيراها ناظرة إلى الأمام.

والقول بمثل هذا الرأي من المذاهب الأخرى تجعل من «الحقيقة» شيئاً سابقاً على الفعل المتجه، مثل الإنسان الذي يصنعها أول مرة. يقولون إنه كان أول من رآها؛ ولكنها كانت تنتظره، كما كانت أمريكا تنتظر «كرستوف كولومب»، وكأن شيئاً كان يخفيها أو يحجبها عن جميع الأبصار، فكشفها هو ورفع عنها الحجاب. أما «وليم جيمس» فيخالف غيره أشد المخالفة في نظره إلى الحقيقة: إنه لا ينكر أن يكون «الواقع» مستقلاً إلى حد بعيد عن أقوالنا عنه أو ظنوننا بشأنه؛ ولكن «الحقيقة» التي لا يمكن أن تتعلق إلا بما نقرره عن الواقع، تبدو لنا وكأنما تقريرنا هو الذي أنشأها. إننا نخترع «الحقيقة» لنستخدم «الواقع»، كما نخترع أجهزة آلية لنستخدم بها قوى الطبيعة. ويخيل إلي أننا نستطيع أن نلخص جوهر نظرية «الحقيقة» لدى «البرجماتيزم» في صيغة كالصيغة التالية: «بينما المذاهب الأخرى ترى أن كل

حقيقة جديدة هي اكتشاف ، يرى مذهب البراجماتزم أنها اختراع »(١) .

وليس يلزم من هذا أن تكون الحقيقة أمراً تحكمياً ، إنه لا قيمة لاختراع آلى إلا بمنفعته العملية ، وكذلك لكى يكون قول ما حقاً ، ينبغى أن يزيد من سيطرتنا على الأشياء . وهو مع ذلك قول ابتدعه ذهن من الأذهان الفردية ، ولم يكن موجوداً قبل الجهد الذى بذله ذلك الذهن ، كما لم يكن الفونوغراف موجوداً قبل « إديسون » . صحيح إن مخترع الفونوغراف كان لا بد له من أن يدرس خواص الصوت ، الذى هو أمر واقع ؛ ولكن اختراعه قد انضاف إلى ذلك الواقع كشىء جديد إطلاقاً ، شىء ربما لم يكن يحدث قط لو لم يكن قد وجد المخترع . وإذن فالحقيقة ، لكى تستطيع أن تحيا ، يجب أن تكون جذورها فى أشياء واقعية ؛ ولكن تلك الأشياء الواقعية ليست إلا الأرض التى تنبت تلك الحقيقة [illegible] المكن أن تنبت هنالك أزهار أخرى لو كانت [illegible] جاءت حاملة إليها بذوراً أخرى .

وإذن فالحقيقة عند البراجماتزم قد صنعت شيئاً فشيئاً بفضل الجهود الفردية لعدد عظيم من المخترعين . ولو لم يكن أولئك المخترعون موجودين ووجد غيرهم مكانهم ، لكان لدينا مجموعة من الحقائق تختلف كل الاختلاف عما لدينا اليوم . إن الواقع كان يبقى كما هو أو يكاد ؛ ولكن كانت تختلف المسالك التى رسمها لمنفعة سيرنا . وليس كلامنا هنا مقصوراً على الحقائق العلمية ؛ فلسنا نستطيع أن نؤلف جملة واحدة ، بل إننا لم نعد نستطيع اليوم أن ننطق بكلمة دون أن نتقبل بعض الافتراضات التى أبدعها أسلافنا ، والتى كان من الممكن أن تكون مخالفة كل المخالفة لما هى عليه . إنى حين أقول : « سقط قلمى تحت المكتب » لا أنطق يقيناً بواقعة من وقائع التجربة ، لأن الذى يدلنى عليه البصر والسمع إنما هو أن يدى قد انفتحت فأفلتت منها ما كان بها ؛ والطفل المشدود إلى كرسيه والذى يرى سقوط الشىء الذى يلعب به ، قد لا يتصور أن ذلك الشىء يستمر فى الوجود ، بل إن شئت فقل إنه ليس لديه فكرة واضحة عن « شىء » ما ، أى عن أصل يبقى دون تغيير ويكون مستقلاً عنه خلال تغير المظاهر العابرة واختلافها . وأول من تنبه إلى الاعتقاد بذلك الأخير وبذلك الاستقلال قد عمل افتراضاً ما ؛ ذلك هو الافتراض الذى جرينا على اتخاذه كلما استعملنا اسماً وكلما تحدثنا . ولو كانت الإنسانية فى مجرى تطورها قد آثرت اتخاذ افتراضات من نوع [illegible] لاختلفت أجروميتنا ولاختلفت أيضاً مفاصل فكرنا وتقاسيمه .

فبناء الذهن الإنسانى إنما هو إلى مدى بعيد من [illegible] أو على الأقل من عمل غيرنا . وهذا [illegible] الدعوى الكبرى لمذهب البراجماتزم وإن لم تكن قد صرح بها تصريحاً . وبهذا تكون « البراجماتزم » استمراراً لمذهب « كانت » . كان « كانت » قد قال إن الحقيقة تقوم على التكوين العام عليها للذهن البشرى . والبراجماتزم تضيف ، أو على أقل تقدير ، تتضمن القول بأن هيئة الذهن البشرى هى نتيجة السمو الحر الذى يقوم به عدد من الأذهان الفردية .

وأعيد ما قلت من أن هذا لا يعنى أن الحقيقة معتمدة على كل واحد منا ، وإلا لصح لنا أن نعتقد أن كل واحد منا كان يمكنه أن يخترع الفونوغراف . ولكن ذلك معناه أن من بين مختلف أنواع الحقيقة ، ليس أقربها ملاءمة لموضوعها هى الحقيقة العلمية ولا هى حقيقة العوام ولا هى على وجه العموم الحقيقة من الطراز العقلى . كل حقيقة هى طريق مرسوم خلال الواقع ؛ ولكن يوجد من هذه الطرق

(١) لست على يقين من أن « جيمس » استعمل لفظ « اختراع » ، ولا أنه صرح بتشبيه الحقيقة النظرية بالجهاز الآلى . ولكنى أعتقد أن ذلك التشبيه يلائم روح المذهب ، وأنه يستطيع أن يعيننا على فهم البراجماتزم (برجسون) .

ما كنا نستطيع أن نعطيه وجهة مختلفة كل الاختلاف لو كان اتجاهنا قد اتجه اتجاهاً مختلفاً ، أو لو كنا قصدنا إلى نوع آخر من المنفعة ؛ ومنها على العكس ما تكون وجهتها مطبوعة بطابع الواقع نفسه ؛ ومنها ما يصح أن نقول إنها مطابقة لتيارات من الواقع . نعم إن هذه الحقائق من النوع الأخير تعتمد بعدُ علينا إلى حد ما ، لأننا أحرار في أن نقاوم التيار أو أن نتابعه ؛ وحتى إذا تابعناه فى مقدورنا أن نحوله عن وجوه مختلفة ، إذ إننا نعمل مشاركين وخاضعين في وقت واحد للقوة التي نتحكم فيه . ومع ذلك فتلك التيارات ليست من صنعنا نحن ؛ إنها جزء أساسي من الواقع . وهكذا فإن البراجماتزم تفضي إلى قلب النظام الذي اعتدنا أن نضع فيه مختلف أنواع الحقيقة . فبمعزل عن الحقائق التي تترجم إحساسات بحتة ، تكون حقائق الشعور هي التي تضرب في الواقع أعمق جذورها . وإذا صح لنا أن نقول إن كل حقيقة هي اختراع ، وجب علينا أن [illegible] لفكر وليم جيمس ، أن الفرق بين حقائق الشعور والحقائق العلمية مثل التفرقة بين المراكب الشراعية والمراكب البخارية مثلا : كلا الاثنين من مخترعات الإنسان ، ولكن الأولى ليس فيها من الصنعة إلا قسط ضئيل ، تأخذ اتجاه الريح ، وتجعل القوة الطبيعية التي تستعملها محسوسة لدى عينين ؛ أما الثانية فآلية الصنعة لها الشكل الأكبر ؛ تحجب القوة التي تديرها وترسم لها وجهة اخترناها نحن .

وإذن فالتعريف الذي يعطيه « جيمس » للحقيقة يتمشى مع نظرته إلى الواقع . فإذا لم يكن الواقع هو ذلك الكون الاقتصادي المنظم الذي يحتم أنفسنا أن يتصوره ، وإذا لم يكن مسنوداً بسند عقلي ، كانت الحقيقة من الطراز العقلي اختراعاً بشرياً نتيجته استعمال الواقع لا إدخاله فيه . وإذا لم ينتظم الواقع في مجموع ، وكان متعدداً ، متحركاً ، مصنوعاً من تيارات يلتقي بعضها مع بعض ، فالحقيقة التي تنشأ من الاتصال بواحد من هذه التيارات — تلك الحقيقة التي هي محسوسة قبل أن تكون متصورة تصوراً مجرداً — هي أقدر من الحقيقة العقلية المجردة على اقتناص الواقع نفسه واحتوائه.

وإذن فنقول آخر الأمر إنه ينبغي أن يكون نقد مذهب البراجماتزم منصباً أولاً على تلك النظرية من « الواقع » . يُستطاع إيراد الاعتراضات عليها — ونحن أنفسنا سنبدي بشأنها بعض التحفظات : — إلا أن أحداً لا ينازع فيما ينطوي عليه المذهب من عمق وأصالة ؛ وإن أحداً ، بعد الفحص عن النظرية الحقيقية المرتبطة به ، لا ينكر سمو الأخلاق . قيل إن « براجماتزم » جيمس ما هو إلا صورة من صور مذهب الشك ، وقالوا إنه مذهب يحط من شأن الحقيقة ، ويخضعها للمنفعة المادية ، ويصرف الناس عن [illegible] ، ولا يشجع على البحث العلمي البريء . إن [illegible] إلا من يتعمقون النظر في آثار البراجماتزم ، وإنه ليبعث أشد الدهشة من عقلوا لمعرفة وليم جيمس . إن أحداً لم يحب الحقيقة أكثر مما أحبها ذلك الرجل ؛ وإن أحداً لم يتقدم بالبحث عنها أكثر من غرامه بها . إن قلقاً عقلياً كان يساور نفسه فيكاد يطير به طيراناً ؛ كان يسير من علم إلى علم ؛ من علم التشريح والفسيولوجيا إلى علم النفس ، ومن علم النفس إلى الفلسفة — كان يسير منكباً على المشكلات الكبيرة ، غير ملتفت إلى ما سواها ، ناسياً نفسه . وقضى حياته كلها مشاهداً ، مجرباً ، متأملاً . وكأنه لم يقنع بما عمل ، وما زال يحلم يوم تمام نومته الأخيرة ، بعلم بتجارب غير مألوفة وجهود تتخطى الطاقة الإنسانية ، وأماني كأنه يرجو بها أن يتجاوز الموت ، فلا ينفك عاملاً معنا ، إيثاراً لمصلحة العلم الكبرى ، وابتغاء شرف الحقيقة الأعلى .

(انتهى)   عثمان أمين

نشيد الذكرى

تعالَ، نرتع الليلة في روضٍ المنى النضر
ونغض الليل بالأفراح، والأقداح، والبشر
فيأبى الحبُّ على سدرك العشاق في صدرى
وربما صفاتُ الروح من عالمه السحرى
فيا ربة أحلامى وما الليلُ لربانا
نحوكا، سابع النور، خفيف الروح، نشوانا
تعالى، أسكب الذكرى على عمقك ألحانا
أعصى الليل جذلانا، ولم يسحر نجوانا !!
تعالى، نبع الروح من التقييد والأسر
ونستصحب على مرح الهوى قيثارة الشعر
فنشدو بالهوى، بالحسن، بالأحلام، بالسحر
ونقضى ليلة بباحة الأنداء، والعطر
هنى لشدو الشادى [illegible]
فكم طفنا بركب الحب [illegible]
وعلمنا أقانين الهنا [illegible]
وأبدلنا من الآمال كونا [illegible]
على قبل أن نمضى مع الأيام أسحارى
وتطوى شبح الحرمان والبأس بأوكارى
فتستيقظ أسحارى، على ماتم قيثارى
وأمضى ... قبل أن أقضى من الآمال أوطارى
كفى هجراً وتعذيباً، فقلبى لم يطق هجرا
ولم يستطع السلوان، أو يحتمل الصبرا
حقوق لأتابع الحب، وقع إلى الذكرى
طروب عند ما رتع في نظرتك السكرى
فكم هام عليه البشر إذ هام بواديك !
وكم حفت به الأحلام إذ حف لناديك !
وكم أطرب سجع الشجر إذ بات يناجيك
وكم عطر أنسام الليالى أغانيك !

«الكاظمية — العراق» علي جليل الوردى

دنياى ...

حضرت الأيام حضراً وأنا
واقف حيث أنا ألمس العمر ...
عبثاً يا دهر تبغى لى العنا
إن فى قلبى ينبوع السرور ...
وإذا ما القلب فى الظلمة تاه
سطع البدرُ من الوجه الوضىء
وإذا ما مسَّهُ برد الحياة
كان فيك الشمس بالدفء تجىء
وإذا احتجت إلى الراح فما
حاجتى للراح؟ والراح هنا ...
بشفة من فمك العذب اللمى
نعمى إلى الراح؟ والقلب أنا ...
وإذا احتجت إلى الزهر [illegible]
إنما دنياى زهر يانع ...
[illegible]
[illegible] زهرى فاح ...
[illegible]
ويفيض الكون أمنا ودعة ...
حيثما يبسم هذا الثغر لى
تبسم الأيام والدنيا معه ...

محمد عبد الحميد عبد الله

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ عابدين — مصر